
تحت العشرين
مفهوم الصداقة بين الجنسين .
طرق التعامل مع المراهقين .
الشباب وجنون الحب .
أسباب العنف عند الأبناء .
أضرار الزواج السري .
تأليف
عماد الحكيم
دار الغد الجديد

تحت العشرين

عماد الحكيم







القاهرة - المنصورة

EXCLUSIVE RIGHTS
BY
DAR AL-GHAD AL-GADEED
EGYPT - AL-MANSOURA

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

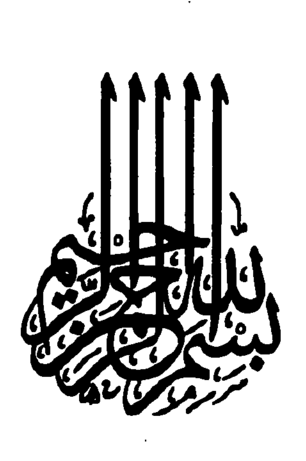


القاهرة: ١٢ ش درب الاتراك خلف الجامع الأزهر
المنصورة: ش عبدالسلام عارف أمام جامعة الأزهر

ت وفاكس: 2254224 - 050 - 002
صندوق بريد: 35111

EMAIL: DAR-ALGHAD@YAHOO.COM

رقم الإيداع : ١٨٦٨٢ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977-372-206-6



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

وبعد:

إن الشباب هم القوة الفاعلة في المجتمع، وعليهم تعقد الخناصر وبهم تستنصر الأمة، وتستمد قوتها وعزتها، وقد ركز علماء التربية على موضوع الإعداد للجيل الصاعد وأشاروا إلى الشباب ما دون العشرين، حيث إن الشاب أو الفتاة في هاتيك المرحلة يتمتع بقدر كبير من القدرة والذكاء ، فضلاً عن العطاء بلا حدود ، والتضحية في سبيل أي فكر أو معتقد لا يصده في ذلك شيء، بل قدرته على مقاومة المستحيل فوق كل تصور.

والموضوعات التي تؤرق شباب العشرين، وتشغل أذهانهم كثيرة وتحتاج إلى من يتفهمها ، ويوليها اهتمامًا ـ لا سيما ـ موضوعات الصداقة بين الجنسين ، وكيفية التعامل مع الشاب والفتاة من قبل الأسرة والمجتمع والأمة الإسلامية في حاجة ماسة للموضوعات التربوية لتعود إلى سابق مجدها، وتكمن أهمية الموضوع في أنه محاولة لتقديم نموذج عملي قابل للتطبيق، وأنه مستمد من الوحيين وكتابات العلماء والمفكرين، يعتمد على الإيجاز ويتميز بسهولة العبارة ووضوح الأسلوب.

كما أن دور القدوة في تفعيل تلك الموضوعات يأتي بالمرتبة الأولى أقصد المربي الواعي، وتقديم نماذج من الشباب المسلم الذي أدرك حقيقة الأزمة الثقافية والاجتماعية التي تمر بها الأمة، وسار على درب أجداده الذين قادوا الأمة إلى بر الأمان، وقد علت بهم ردحًا من الزمان، ثم ما فتئ الزمان يدور حتى عَلاَ في المجد قوم آخرونَ، وهؤلاء الشباب الذي لم تحطمه الليالي ، ولم يسلم إلى الأعداء الجبينا، كذلك أخرج الإسلام قومًا، شبابًا مخلصًا حُرًا أمينًا، وعلَّمه الكرامة كيف تُبنى ، فيأبى أن ينساق وراء أفكار الحاقدين، فهل ترى يرجع الماضي، فنحن نذوب لذلك الماضي حنينًا ونرمق في ذلك شبابًا طامحين ، فنحن في حاجة إليهم، كما أنهم في حاجة إلينا، كي نصل جميعًا إلى تحقيق الإيمان، في زمن غربة الإسلام ، واجتماع

قوى الشرق والغرب على أهل الإيمان، فيجب علينا أن نخرج من مأزق الحصار اللاديني... والعلمانية... لتجفيف الغيث من كل المنابع.. حتى جففوا النفوس والقلوب والعقول، ولن يعود الغيث إلا إذا عدنا نحن، دعوةً ومثابرة، بالدعاء والصلاة والتضرع والخشوع، وخطوة على الطريق يتعين توجيه نظر الشباب إلى ما يصلحهم ، ويقوي إيمانهم في مواجهة الفتن، وإذ بي أنظر إلى جهدي المتواضع من خلال هذه الرسالة على أنه مجرد خطوة تحتاج إلى خطوات وإلى أفكار جديدة تعين الشباب على مواصلة المسير، والتقدم إلى الأمام نحو مستقبل أفضل، مع لفت نظر الآباء والمربين إلى أمور تحتاج إلى وقفات ونظرات، وأخيراً أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعًا إلى ما يحبه ويرضاه وأن ينفعنا بما علمنا وأن يتقبل منا صالح الأعمال.

إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عماد حمدي الحكيم

١٢ ربيع أول ١٤٢٧هـ



الفصل الأول

حول مفهوم الصداقة والأصدقاء

الفصل الأول

حول مفهوم الصداقة والأصدقاء[(١)]

كان من الذين كتبوا في موضوع الصداقة والأصدقاء الفيلسوف أبو حيّان التوحيدي[(٢)] وقد أفرد له كتابًا مستقلاً يوضح فيه مفاهيم التآخي والتعايش بين البشر، وهو كتاب فريد من نوعه بعنوان (الصداقة والصديق) وهو الأول في الثقافة الإسلامية، بل وفيما سبقها من ثقافات يخصص بكامله لموضوع الصداقة، جمع فيه كثيرًا من الحكايات والأقوال المأثورة والأشعار ، لا عند العرب قبل الإسلام فحسب، بل وعند اليونان والفرس وغيرهم ، من الشعوب والأمم.

قال أبو حيّان: إن لفظ «الصديق» مشتق من الصدق، وهو خلاف الكذب، أو من الصدق حيث قال: «رمح صدق» أي صلب، وعلى الوجهين يكون الصديق صادقًا، (أي غير كاذب)، إذا قال وتكلم ، ويكون صدقًا (أي صلبًا) إذا عمل.

ويوضح أبو حيان اقتناعه بأهمية الصداقة فيشير إلى أنها قد تسمو على القرابة ، ويستشهد بحديث لابن المقفع سُئل فيه: « الصديق أحب إليك أم القريب؟ فقال: القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا، ثم يسهب أبو حيان بعد ذلك في التفرقة بين الصديق الطيب وصديق السوء، ويوضح بجلاء أن صحبة الأخيار والعقلاء تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث دائمًا الشر، فيذكر أن الصداقة بين الصالحين بطيء انقطاعها ، سريع اتصالها كآنية الذهب بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بعيد اتصالها كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شيء ولا جبر لها.

ثم يضيف أن الصديق السيئ هو الذي يحتاج في معاملته دائمًا إلى الملاينة ، وهو أيضًا من يضطر صديقه إلى الاعتذار له عن كل صغيرة وكبيرة لبعده عن التسامح.

---

(١) انظر: مجلة «تحت العشرين » العدد العاشر ـ سبتمبر ٢٠٠٤ .

(٢) أحد أعلام القرن الرابع الهجري (٣١٢ ـ ٤٠٠ هـ).

ويوضح أبو حيان أن العتاب ضروري بين الصديقين إذا وقع خلاف بينهما، لكن بدرجة معتدلة، فالإسراف يعد إلحاحًا، أما صرف النظر عنه فيعد استهانة وتجاهلاً للصديق، ويفرق أبو حيان بعد هذا بين نمطين من الأصدقاء.

النمط الأول: هو الصديق الذي يحسن الكلام، ولا يحسن العمل نحو صديقه.

والنمط الثاني: الذي يحسن العمل وقد لا يحسن الكلام، وهنا يستعير قولاً لطيفًا لتجسيد هذا الفرق: «أدركت أقوامًا كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهرًا أو شهرين، فإذا لقيه لم يزده على: كيف أنت وكيف الحال؟ ولو سأله شطر ماله لأعطاه، ثم أدركت أقوامًا لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يومًا سأله عن الدجاجة في البيت ولو سأله عن حبة من ماله لمنعه.

ثم يذكر أن من حق الصديق على صديقه القيام بأعبائه في غيابه، وحفظه ومعاونته عند حضوره وملاطفته إذا جفا ومكافأته إذا وفق في عمله، والحديث عنه الحديث الطيب مع الأصدقاء الآخرين ، ودفع الظلم عنه والابتهاج لرؤيته، والحفاظ على سره، وعدم تصديق ما يُقال عنه، ومعاتبته إذا وقع خلاف معه بدلاً من قطع الصلة به نهائيًا، ويلتفت أبو حيان إلى الآثار طويلة المدى للصداقة، فيشير إلى دوام الصداقة ، وتبادل الثقة يؤدي إلى أن التشابه في الاختيارات والغايات رغم تعارض أعمال وتبعات الصديق في الحياة، حتى تصير عادة كل منهما إلى عادة واحدة وتتحد الإرادتان إلى إرادة واحدة وفي هذا المستوى يكون التفاهم بينهما أسرع وأوضح، ما يكون، حتى يكفيهما التعبير عن العتاب بلمحة أو إشارة أو كناية لا يفهمها غيرهما، ويضيف أن أغلب الصداقات لا تصل إلى تلك الدرجة، لأنها مجرد تعارف قائم على تشابه المنشأ أو النسب أو الجوار أو السكن ويسودها الحسد والتنافس أحيانا ثم ذكر المقارنة بين العشق والصداقة ، إذ يرى أن الصداقة تقوم على التشابه وتلاقي الأخلاق بينما لا يلاحظ وجود تشابه بين العشاق ، ويرجح أن الأنس بالصديق أقوى من الأنس بالعشيق أو العشيقة، لأن الصديق يصلح لكل الأحوال في الجد والهزل ، والقليل، والكثير، وهو متعة العقل والروح معا، أما العشيق فإنه متعة للعين ولكنها متعة محفوفة أحيانًا بالشك والريب، ويؤدي التعلق بالمعشوق إلى إثارة مشاعر الشجن

والحزن وفي معظم الأحوال لا تدوم العلاقة بين العاشق والمعشوق.

وفي النهاية الكتاب لا ينحصر « كتاب الصداقة والصديق » فيما يحتوي عليه من حكم غريبة وأجنبيــة في الصداقة والعشرة والمؤاخاة والوفــاء والغدر والوفاق والخلاف وما إلى ذلك ـ فحسب، وإنما تتجلى قيمه بصفة خاصة فيما انطوى عليه من تفريقات لفظية دقيقة بين بعض الألفاظ المتشابهة التي شاع استــعمالها كمترادفات ، فمثلاً يرى التوحــيدي أن الصداقــة ليست مــجرد صلة تقوم على الأخــذ والعطاء، بل هي رابطة شخصية تقوم على التبــادل النفسي والتجاوب الروحي، وهذا هو الأصل، في التفرقة بين «الصداقــة والعلاقة» فإن الصــداقة أذهب في مســالك العقل، وأدخل باب المروءة وأنزه عن آثار الطبيــعة من حيث إن «العلاقــة» هي من قبيل العــشق والكلف والهوى والصبابة، وهذه كلهــا أمراض تطرأ على النفس الضعيفة ، دون أن يكون للعــقل فيها أدنى مدخل، ومن هنا فــإن الصداقة هي من شيم ذوي الشيب والــكهولة ، حيث إن «العلاقة» أقرب دائمًــا إلى نفوس الشباب من الذكور والإناث غالبًــا ، لا سيما الذين يتقارب سنهم.

* * *

العادات والتقاليد التي تحكم علاقة الشاب والفتاة

أما عن علاقة الرجل بالمرأة، فهي صداقة أو عـلاقة شائكة ومرتبكة، بل وملتهبة لا سيما في مجـتمع اليوم، فالرجل المحترم لا يرضى بهذه العلاقـة لأخته أو زوجته، بالرغم من أنه يمكن أن يقيم علاقات منها الصداقة وغيـرها، والأسباب قد تبدو كثيرة ومتنوعة ، أهمها عدم الثقة بالآخـر. أو لأنه في مجتمع ذكوري يعطيه الحق في إقامة علاقـة صداقة وغيـرها مع الجنس الآخر ، وينكر هذا الحق على المرأة ، أو لأسـباب التربية الخاصة ، كـما في الطبقات المتوسطة والدنيا التي تعتبـر أن الفتاة عورة وحمل ثقيل يتمـنون الخلاص منه بزواجها، أما في الـطبقات العليا فكل شيء مـباح، وأيضًا للثقافة والوعي دور مهم في تقبل تلك العلاقة ، وهنا نحاول عرض بعض آراء بعض النساء والرجال في هذه العلاقة ، ورأي الدين في ذلك، مع النظر في أقوال الأساتذة في علم النفس والاجتماع.

قالت إحدى السيدات (مـوظفة على المعاش) ومطلقة [١] : إنه لا توجد صداقة بين الرجل والمرأة ، لكنها توجد بين النوع نفسـه وذلك استنادًا للحديث الشريف «**ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**» [٢] .

فلو طبقنا شرع ربنا فلن تصبح هناك خيانة ولا مشاكل زوجية ـ سببها ذلك النوع من العلاقات بالإضافة إلى أن المجتمع لن يقبل مثل هذه العلاقة ، لكنه قد يقبل زمالة العمل فـقط، فنحن في مـجتمع شـرقي له أخلاقـياته وعـاداته ، ولسنا في مجـتمع أوروبي منحل.

قالت امـرأة أخرى: أخـصائيـة اجتـماعـية، متزوجة ولهـا ثلاثة أولاد ، لها رأي مخالف لما سبق، فهي لا ترفض العلاقة بين الرجل والمرأة، بشرط أن يكون صديق أو صديقة الأسرة فهي تقول: «إنني أؤمن بالصـداقة بين الرجل والمرأة طالما أنهم مثقفون ومدركون لطبيـعة هذه العلاقة ، وبشرط أن يكون صديقي صـديقًا لزوجي أيضًا، أي

---

(١) تحت العشرين ص (٨) بقلم: نادية المسلماني.

(٢) حديث صحيح.

صديقًا للأسـرة، وأيضًا ينطبق الحال على صديقة زوجي بأن تكون صـديقة لي أيضًا، ولكن أن تكون صديقته فقط أو لي صديق لي فقط. فهذا ما لا يقبله المجتمع ، وفي النهاية ، فهـذا يتوقف على نظرة الرجل لزوجته ومشـاعره لها، فهما المحـددان للثقة المتبادلة بينهما[١] .

قالت امرأة أخرى (تعمل مهندسة): ومـتزوجة ولديها بنتان، فتقول: «إن العامل الأساسي في إقامة علاقة مثل هذه ، لا تكون حـتى تتوفر الثقة المتبادلة بين الزوجين، وأعتقد ضرورة وجود الثقة بالنفس أولاً، فمن لديه الثقة فلن يشك أو يقلق في علاقة الصداقـة بين الجنسين ، فهي علاقة رائعـة إذا لم يشوبها أي تفكيـر خاطئ بين طرفي العلاقـة، وأقول ذلك عن تجربة شـخصيـة، فزوجي له عديد من الصـديقات اللاتي أعرفـهن، ولكنهن صـديقات له أكـثر مني، ولا أقلق، وليس لدي شك فـي صدق صداقتـهم لبعض لأنني أولاً أثق بنفسي، وبالتالي فإننـي على ثقة بزوجي، وأيضًا لي أصدقاء يعرفهم زوجي ولا يمانع من علاقة الصداقة بيننا لأنه أيضًا واثق بنفسه أولاً ثم ثانيًا بزوجته[٢] .

وقال رجل آخـر (متزوج وله طفلان) يـعمل حارس أمن لإحدى الشـركات: «لا أقبل أن يكون لزوجتي علاقة صداقة برجل آخر لأنه بذلك يعطي مجالاً للقيل والقال من جيراني ومعارفي عن زوجـتي، وإنني لا أعرف أية صداقة بين رجل وامرأة فنحن لسنا في أوروبا ولا أمريـكا، لأننا مجتـمع له تقاليده وأعـرافه الدينيـة التي لا تسمح بإقامة مثل هذه العلاقات التي في غالبها مخالفات شرعية.

وقالت امرأة أخـرى (حاصلة على دبلوم تجارة ، ومـتزوجة): لا لن أقبل صداقة زوجي بامرأة أخرى، وأيضًا لن يقبل زوجي تلك العلاقة، لأنها ستصبح مجالاً للغيرة بيننا ، وهي أيضًا ملفتـة للنظر للمجتمع والأسرة والأصدقـاء والمعارف، فمن أين لي

---

(١) قلت: هذا رأي خاص بهذه المرأة وحدها.

(٢) قلت: هذا أيضا رأي خاص بتلك المرأة، وواضح مخالفتـه لنصوص الشرع ، وسيأتي توضيح ذلك وسلبياته.

أن أعرف نية هذه المرأة بالنسبة لزوجي، ويمكن أنني أشعر بذلك لأنني لست موظفة وست بيت، فالموظفة تقابل زملاءها في العمل ، وهي متحدثة أكثر معهم[١] وهذا يجعل تفكيرها أكثر نضجًا مني، لكني محصورة في جدران البيت والأولاد، وتعودت على طريقة تفكير أهلي وزوجي ، وأقول أيضًا: إن هذا يعود للرجل فإذا كان متفتحًا أكثر فسيكون متفهمًا لطبيعة هذه العلاقة.

وقال آخر (محاسب في شركة سياحية ، وزوج): يرى أن رؤية علاقة الصداقة بالنبسة للزوجين مغلفة بعدة شروط، أولها: مدى علاقتهم ببعض ، ثانيًا: مدى ثقتهم ببعض، ثالثا: مدى احترامهم لبعض ، هذه الشروط كفيلة بتفهم طبيعة علاقة صداقتهم للأطراف الأخرى، فإذا كانت علاقتهم قوية ومتماسكة فلن تكون هناك أضرار من إقامة علاقة الصداقة بين الجنسين، فلماذا دائمًا نرتاب في هذه العلاقة؟

هل للمجتمع دور في ذلك؟ أم في الحديث الشريف الذي ينهى عن اجتماع رجل مع امرأة، لأن الشيطان سيكون ثالثهما؟ ولماذا نفترض أنهم سيتقابلون في مكان خاص لا يراهم فيه أحد؟ فالحديث ينهى عن اجتماع الرجل والمرأة في مكان مع عدم وجود أي شخص آخر[٢] ، وفي وجود مثل هذه العلاقة لن يكون من الضروري لقاؤهم في أماكن خاصة وإلا كان الدافع بينهم دافعًا آخر غير الصداقة .

وقالت الدكتورة مديحة الصفطي أستاذ علم الاجتماع: «إن مثل تلك العلاقة اجتماعيًا غير مقبولة، فهناك عادات وتقاليد تحد من العلاقة بين الطرفين للخوف من أن تتطور لأشياء أخرى بافتراض العلاقة الجنسية بينهم بالإضافة للعامل الديني الذي يقول بأن اجتماع رجل وامرأة سيكون الشيطان ثالثهما، إضافة إلى أن النظرة لتلك

---

(١) لذلك هناك ضوابط شرعية بالنسبة لخروج المرأة للعمل، إذا تحققت هذه الشروط جاز لها الخروج .

(٢) بالطبع الحديث نهى عن الاجتماع عمومًا ولم يحدد ذلك بمكان خاص أو بمكان عام واشترط لجواز ذلك وجود ذي محرم بالنسبة للمرأة، حتى تتوفر لديها النية الحسنة في هذا اللقاء ، أما كون الشرع لم يحدد هذا الشخص فيكتفي بوجود أي شخص آخر، فهذا غير صحيح، طالما حدد هذا الشخص بأن يكون محرم بالنسبة للمرأة كأب أو أخ أو عم أو خال سواء ذلك في مكان عام أم في مكان خاص.

العلاقة تختلف من شريحة اجتماعية لأخرى، فالشريحة التقليدية لا تسمح ولا تقبل بتلك العلاقة، أما الشريحة الاجتماعية التي بها درجة الانفتاح فستسمح بها، ولن يكون شيئًا مستغربًا بالنسبة لها، وإنني أشجع الصداقة بمفهومها الواسع سواء بين رجل وامرأة أو امرأة وامرأة أو بين رجل وامرأة، وهي احتياج إنساني لا يستغني عنه أحد.

قال الدكتور / عزيز حنا ـ أستاذ علم النفس بكلية التربية جامعة عين شمس ـ يرى أنها تقاليد موجودة في الدول العربية نتيجة ثقافة متخلفة ـ فهي لا توجد مثلاً في أوروبا ولا أمريكا والسبب الأساسي فيها النظرة الجنسية والمعول الأساسي فيها التربية حيث توجد نسبة أمية كبيرة حيث ينبه الآباء والأمهات على أولادهم أن علاقتهم الجنسية بالجنس الآخر عيب، وأيضًا من الأسباب المخيفة للمجتمع الإعلام وما ينشر من خلاله من جرائم وانتهاك أعراض وحمل غير رسمي، هذا كله شأنه زيادة الخوف وبالطبع من ناحية الرجل المسبب لهذه الجرائم التي تكون الفتاة ضحية فيها، وبذلك تزداد القطيعة في العلاقة بين الجنسين، وأيضًا الأسباب المهمة مشكلة تعدد الزوجات(١) التي تجعل الزوجة متخوفة من ارتباط الزوج بعلاقة صداقة لامرأة أخرى، والأمر مختلف في الفئات الأكثر ثقافة حيث يكون التعامل بسيطاً بين الجنسين بلا حساسية كالتعامل بين الأخوين، وتعتبر هذه الطبقات أن البنت عورة وبالتالي يحاولون زواجها صغيرة السن(٢) ، وأرى أن المجتمع يحتاج لنوع من التوعية وتنشيط المدارس المختلفة لتكون نظرة الولد إلى البنت منذ الصغر نظرة إخوة ، وأيضًا تحتاج إلى إشراف جيد من الأسر كما أن الإعلام من صحافة وتليفزيون له دور كبير في نشأة هذه التوعية(٣) .

---

(١) ذكر هنا مشكلة تعدد الزوجات دون النظر إلى مميزاتها، لا سيما وأن كثيراً من النصارى لا يعتنقون مبدأ تعدد الزوجات ، مع أن الديانة المسيحية منذ القدم أقرت مبدأ تعدد الزوجات كسائر الأديان.

(٢) انظر : تحت العشرين ـ العدد العاشر : سبتمبر ٢٠٠٤ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ مجلة غير دورية.

(٣) كيف ذلك والدين الإسلامي يحذر أشد التحذير من خطورة الاختلاط بين الرجال والنساء، كيف أن تضع الكبريت بجانب النار، كمن قذف في البحر، وقلنا له: إياك ثم إياك أن تبتل بالماء، والذكر والأنثى بفطرتهما ينجذبان ويتحدان ويطلب كل منهما الآخر.

وبعد استعراضي لهذه الآراء المختلفة والمتنوعة، نعرض الآن لرأي الدين الإسلامي في مدى مشروعية هذه العلاقة:

بداية نقول: إن الاختلاط والإباحية، والحرية في المجتمع الأوروبي والأمريكي هدّد الأسر، وزلزل القيم والأخلاق، فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين ، في المجتمع الحديث تخالط الشبان وترقص «تشاتشا» وتشرب الخمر والسيجار ، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية ، والحرية والإباحية، والعجيب في أوروبا وأمريكا، أن الفتاة الصغيرة تحت سن العشرين تلعب، وتلهو ، وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها، بل وتتحدى والديها، ومدرسيها، والمشرفين عليها، تتحداهم باسم الحرية، والاختلاط ، تتحداهم باسم الإباحية ، والانطلاق ودعوى الحرية ، تتزوج في دقائق، وتطلق بعد ساعات، ولا يكلفها هذا أكثر من إمضاء، وعشرين قرشًا، وعريس ليلة، أو لبضع ليال، وبعدها الطلاق، وربما الزواج ، فالطلاق مرة أخرى ولذلك، فإن القيود التي يفرضها المجتمع العربي على الفتاة الصغيرة ـ وأقصد ما تحت سن العشرين ـ هذه القيود صالحة ونافعة ، ولهذا ننصح بأن يتمسكوا بتقاليد الإسلام وأخلاق أهل الإيمان، بمنع الاختلاط ، وتقييد حرية الفتاة.

وقد نشرت جريدة «الجمهورية » العدد: السبت ٩ يونية ١٩٦٢ نشر تحت العنوان «كاتبة أمريكية تقول» : امنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية المرأة.

نقلت الصحيفة، تحت هذا العنوان كلامًا قويًا صريحًا، وقد بدأت فقدمت الكاتبة الأمريكية للقراء، فقالت: غادرت القاهرة الصحفية الأمريكية «هيلسيان ستا نسبري» بعد أن أمضت عدة أسابيع هنا وهناك، وزارت خلالها المدارس، والجامعات، ومعسكرات الشباب، والمؤسسات الاجتماعية ومراكز الأحداث، والمرأة، والمنتديات ، والأطفال وبعض الأسر في مختلف الأحياء، وذلك في رحلة دراسية عاجلة، لبحث مشاكل الشباب والأسر، في المجتمع العربي، و«هيلسيان» صحفية متجولة ، تراسل أكثر من ٢٥٠ صحيفة أمريكية ، ولها مقال يومي يقرأه الملايين من الشعب

الأمريكي، ويتناول مشاكل الشباب تحت سن العشرين ، وعملت في الإذاعة والتليفزيون ، وفي الصحافة أكثر من عشرين عامًا وزارت جميع بلاد العالم، وهي في الخامسة والخمسين من عمرها.

تقول الصحفية الأمريكية ، بعد أن أمضت شهراً في الجمهورية العربية (أي مصر) بعد أن قدمتها الجريدة هذا التقديم: إن المجتمع العربي، مجتمع كامل وسليم، ومتماسك ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده وأعرافه، التي تقيد الفتاة والشاب في حدود المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبي والأمريكي ، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة، وتحتم احترام الأب والأم، وتحتم أكثر من ذلك ، عدم الإباحية الغربية، التي تهدد المجتمع والأسرة في أوروبا وأمريكا.

لهذا أنصح بأن تتمسكوا بأخلاقكم ، فامنعوا الاختلاط، وقيدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحة ، وانطلاق، ومجون أوروبا وأمريكا، امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين ، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعًا معقداً، مليئًا بكل صور الإباحية والخلاعة، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين يملأون السجون، والأرصفة والبارات، والبيوت السرية.

إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا، وأبنائنا الصغار، قد جعلت منهم عصابات أحداث، وعصابات «جيمس دين» وعصابات للمخدرات والرقيق. ا. هـ.

ولقد وصل الحال بنا إلى جعل التعليم وسيلة لعرض مفاتن ومحاسن المرأة، لقد أصبحت دور التعليم المختلفة صالات لعرض الأزياء، وفي هذه الأيام من كل عام عندما تعلن الجامعة عن افتتاح أبوابها، تبدأ الصحف، والمجلات في الكتابة عن الفتاة الجامعية، وتثار المناقشات حول زيها ومكياجها، وقد يُطالب البعض بتوحيد هذا الزي، ويُطالب آخرون بمنع وضع المكياج .

وكان من المفترض أن تُصان هذه الدور من الهبوط المزري، حتى تبقى لها حرمتها، وكيانها المقدس، فقد جاء في صحيفة أخبار اليوم بتاريخ ١٩ / ٩ / ١٩٦٢ ما يلي:

«فتاة الجامعة لا تفرق بين حرم الجامعة ، وصالة عرض الأزياء».

قالت الكاتبة: «وأنا لا أؤيد هذه الآراء التي تقول بتوحيد زي الفتاة، لإيماني بأن اختيار الفتاة لأزيائها ينمي شخصيتها ، ويساعد على تكوين ذوقها، والفتيات في معظم جامعات الخارج لا ترتدين زيًا موحداً ، ولا يحرمن من وضع المكياج، ولكني مع هذا، لا ألوم كثيراً من أصحاب هذه الآراء المتطرفة ، فالفتاة الجامعية عندنا تدفعهم إلى المطالبة بذلك ، لأنها لا تعرف كيف تختار الزي والمكياج المناسبين لها كطالبة ، ولا تبذل أي مجهود في هذا السبيل، إنها لا تفرق كثيراً بين حرم الجامعة، وصالة عرض الأزياء، أو الكرنفال، فهي تذهب إلى الجامعة في الصباح مبكراً، بفستان ضيق، يكاد ضيقه يمنعها من الحركة، مع الكعب العالي الذي ترتديه، وعندما تغيره ، تستبدل به فستانًا واسعًا تحته أكثر من «جيبونة» تشل بدورها حركة صاحبتها، وتجعلها أشبه بالأباجورة المتحركة، وهي فوق هذا ـ إن نسيت كتبها ـ ومجلد محاضراتها ـ فهى لا تنسى أبدًا الحلق والعقد، والسوار والبروش ، الذي تحلى به أذنيها وصدرها، وذراعيها، وشعرها في غير تناسق أو ذوق.

ثم مضت الكاتبة تقول: «وهذا كله يرجع في رأيي إلى أن الفتاة الجامعية عندنا ، لا تأخذ الدراسة الجامعية مأخذ الجد، فهي تضع فوقها زينتها وأناقتها ، والمفروض أن يكون العكس صحيحا في وقت نالت فيه ثقافة المرأة أعلى تقدير ، ليس معنى هذا أنني أطالب الفتاة الجامعية بإهمال ملابسها وزينتها ، إنني أطالب بالاهتمام أولاً بدراستها، ثم بتخفيف مكياج وجهها، إن لم يكن مراعاة لحرم الجامعة، فعلى الأقل مراعاة لبشرتها ، التي يفسدها كثرة المكياج، في سن تكون نضارة الوجه فيها أجمل بكثير من المكياج المصطنع، ثم بعد ذلك أطالبها بالحد من استعمال الحلي، وبارتداء الملابس البسيطة التي تناسب الفتاة الجامعية، كالفستان «الشيزييه» و«التايير» ذي الخطوط البسيطة ، والفستان الذي تنسدل جوبته إلى أسفل ، في وسع خفيف، لا يعرقل حركتها، والجوب والبلوزة، أو الجوب والبلوفر، أو الجوب والجاكت وأن تراعي في اختيارها لهذه الأزياء الألوان الهادئة، التي لا تثير القيل والقال بين زملائها الطلبة.

إنني أطالب الفتاة الجامعية باتباع هذا، وأطالب أولياء أمورهن بضرورة الإشراف التام، على ثياب بناتهم، فالفتاة في العهد الجديد، لم يعد هدفها الأول والأخير في الحياة جلب الأنظار إليها بالدندشة والشخلعة ، إنها اليوم يجب أن تُصقل بالثقافة ، والعلم، والذوق السليم ، فلم يعد أقصى ما تصبو إليه هو مكتب سكرتيرة ، تجلس عليه، لترد على تليفونات المدير، وإنما المجال قد فتح أمامها ، وجلست إلى مكتب الوزارة.

هذا ما قالته إحدى الكاتبات في أخبار اليوم، وهي تعيب على بنات جنسها ، وتنعي عليهن هذا التصرف السيئ والخلق المشين.

وأيضًا هذه الظاهرة قد أثارت اهتمام زائرات القاهرة من الأجنبيات قديمًا وحديثًا[١] ، إذ لم تكن المرأة الغربية تفكر في مدى الانحدار، الذي ترددت فيه المرأة العربية ، ففي عدد الأهرام ٢٧ مارس ١٩٦٢ جاء في باب «مع المرأة» هذا العنوان: «المرأة الغربية غير راضية عن تقليد المرأة الشرقية لها».

وجاءت تحت هذا العنوان « اهتمام المرأة العربية بالموضات الغربية وحرصها على تقليد المرأة الغربية في تصرفاتها ، وفي طباعها، لا تستسيغه السائحات الغربيات، اللائي يحضرن لزيارة القاهرة، ولا يرفع من سمعتها في الخارج كما تظن ، أفصحت عن ذلك الرأي صحفية إنجليزية زارت القاهرة، وكتبت مقالاً في مجلتها، قالت فيه: « لقد صدمت جدًا بمجرد نزولي أرض المطار، فقد كنت أتصور أنني سأقابل المرأة الشرقية بمعنى الكلمة، ولا أقصد بذلك المرأة التي ترتدي الحجاب والحبرة،وإنما المرأة الشرقية المتحضرة، التي ترتدي الأزياء العملية ، التي تتسم بالطابع الشرقي، وتتصرف بطريقة شرقية، ولكنني لم أجد شيئًا من هذا فالمرأة هناك هي نفسها المرأة التي تجدها عندما تنزل إلى أي مطار أوروبي،فالأزياء هي نفسها بالحرف الواحد، وتسريحات الشعر هي نفسها، والمكياج هو نفسه،حتى طريقة الكلام والمشية، وفي بعض الأحيان اللغة: إما الفرنسية أو الإنجليزية!!

(١) انظر فقه السنة للشيخ الراحل: سيد سابق ـ رحمه الله ـ (٢/ ٤٧٨).

وقد صدمني من المـرأة الشرقية ، أنها تصـورت أن التمدن والتحضـر ، هو تقليد المرأة الغربية ، نسيت أنهـا تستطيع أن تتطور ، وأن تتقدم كما شـاءت، مع الاحتفاظ بطابعها الشرقي الجميل. ا. هـ.

وقد يروق لبعض المتحذلقين مسايرة التيار، والمشي وراء الركب، زاعمين أن ذلك تطور حتمي، أو رقي، اقتضته الظروف المدنية الحديثة.

لكننا لا نمنع أن يسيـر التطور في طريقه، وأن يصل إلى مـداه، ولكننا نخشى أن يفسـد هذا التطور الدين ، فما علاقـة تعليم المرأة بعرض زينتهـا ومفاتنها ومـا علاقة التعليم، وعـمل المرأة بإباحة الإجـهاض والدعوة إلى السـفور والاختـلاط والمجون والخلاعة ، ما عـلاقة التطور بنشر الزنى وعرض ظواهر التحلل والانحـلال وتشجيع عناصـر الفسـاد والإفساد في المجـتمع عن طـريق نشر وتهـويل وتعظيم دور المنحلين خُلقيًا.

إن الدين وما يتـبعه من تعاليم خلقـية، وأدبية، إنما هو وحي من الله سـبحانه، شرعه لكل عصر، ولكل زمان ومكان، فإذا كـان التطور جائزًا في أمور الدنيا وشئون الحياة، فليس هذا مما يحذر في دين الله وشرعه.

إن الدين نفـسه هـو الذي دعا إلى العلـم وإلى التطور والرقي والتـقدم، وفـتح المجالات للعقل لينظر في آفاق الكون، لينتفع بما فـيه من قوى وبركات ، حتى يطور حيـاته ، ليصل إلى أقـصى ما قـدر له ، من تقدم ورقي، فـثمـة فرق بين ما يـقبل التطور، وبين ما لا يقبله التطور، والدين ليس لعبـة تخضع للأهواء، وتوجهات وآراء الناس.

* * *

نتائج وسلبيات هذا الانفتاح

وقد سبب الجهل والتقليد الأعمى الانحراف عن الخط المستقيم، وقد جاء الاستعمار من قبل ونفخ فيه وزينه لأصحاب الأهواء والعقول الضعيفة ، وأوصله إلى غايته ومداه، فأصبح من العادة أن يرى الشاب المسلم الفتاة مبتذلة، عارضة مفاتنها خارجة في أبهى زينتها، كاشفة عن صدرها، ونحرها، وظهرها، وبطنها ، وذراعها وساقها، وقد لا تجد أي غضاضة في قص شعرها، وتلوينه ، مع التطيب بأنواع الطيب، واختيار الملابس المغرية، والشفافة، وأصبح «للموضات» الأزياء مواسم خاصة، يعرض فيها كل لون من ألوان الإغراء والإثارة وتجد المرأة من المفاخرة والمباهاة، ومن مظاهر الرقي: أن ترتاد أماكن الفجور والفسق، والمراقص والملاهي ، والمسارح والسينما والملاعب ، والأندية والمقاهي، وتبلغ المنتهى في الهبوط إلى المصايف والبلاجات الخاصة والعامة، وأصبح من المألوف أن تعقد مسابقات الجمال ، تبرز فيها المرأة أمام الرجال ، ويوضع تحت الاختبار كل جزء من بدنها، يقاس كل عضو من أعضائها، على مرأى ومسمع من المتفرجين والمتفرجات ، والعابثين والعابثات ، وأصحاب القلوب المريضة بالشهوة، وللصحف وغيرها من أدوات الإعلام مجال واسع المدى في تشجيع هذه السخافات ، والتغرير بالمرأة، للوصول إلى المستوى الحيواني الرخيص ، كما أن لتجار الأزياء دوراً خطيراً في هذا الإسفاف.

وكان من نتائج هذا الانحراف أن كثر الفُساق ، وانتشر الزنى، وانهدم كيان الأسرة وأهملت الواجبات الدينية، وتركت العناية بالأطفال، واشتدت أزمة الزواج، وأصبح الحرام أيسر حصولاً من الحلال، وبالجملة ، فقد أدى هذا التهتك إلى الانحلال الخلقي، وتدمير الآداب ، التي اصطلح الناس عليها، في جميع المذاهب والأديان.

وقد بلغ هذا الانحراف حداً كبيراً، لم يكن يخطر على بال مسلم، وتفنن دعاة الانحلال والتفسخ ، واتخذوا أساليب التجميل ، واستعمال الزينة ، ووضعوا لها منهجًا، وأعدوا معاهد لتدريس هذه الأساليب .

نشــرت جريدة الأهرام ، تحت عنوان «مع المرأة » مـا يلي: أول معــهد لتــدريس تصفيف شعر السيدات، في الأسكندرية».

«خبير ألماني يقوم بالتدريس في المعهد بعــد شهر» ولأول مرة تقيم رابطة مصففي شعر السـيدات ، في الإسكندرية معهـداً لتصفيف الشــعر للسيدات، أقيـم المعهد من تبرعات أعضاء الرابطة، تبرع أحـدهم «بسشوار» وتبرع آخر ببعض المكاوي، ودبابيس الشعر، والفرش. . . وهكذا تكون المعهد، بعد أن استأجرت له الرابطة شقة صغيرة ، ليكون نواة معهد كبير في المستقبل.

وقد أصدرت الرابطة «أمر تكليف» إلى جميع أعضائها «أصحاب المهنة» بالحضور لإلقاء المحاضرات النظرية ، والقيام بالتـجارب، والدروس العملية أمام طلاب المعهد، افتـتح المعهد صبـاح أمس في مقر الرابطة في كليـوباترة ، وقام أحد الأعضــاء بإلقاء محاضرة في كيفية قص الشـعر، وبعض الطرق في فن القص، ثم قام بعمل تسريحة جديدة من تصميمه، سماها « الشـعلة » لإحدى « المنيكانات » وكان يشرح التسريحة وهو يقوم بها.

يدرس في المعهـد فن تصفيف الشــعر، والصبـاغة، والألوان، والقص ، وتقليم الأظافر والمسياج ، والتدليك.

يقول رئيس الرابطة في الـقاهرة ، وضيف رابطة الأسكندرية: إنه أنشـأ مثل هذا المعهد في القاهرة منذ ٥ شهور ، ورغم قصر المدة، أحرز المعهد نتيجة مشرفة ، إذ أن الطلبـة والطالبات يسـتفيـدون من تبادل الأفكار ، بـين أعضاء الرابطـة، ومن عرض التسريحات وشرحـها أمامهم، مما يرفع مستوى المهنة، كما استـفادوا أيضًا من حضور بعض الخبراء الألمان، ومحـاضراتهم العلمية والنظرية أمام الطلبة وسوف يحـضر خبير ألماني إلى معـهد الأسكندرية في الشــهر القادم، كـما تعقـد الرابطة في الشهر نفــسه مسابقة، للحصول على جائزة الجمهورية ، في فن تصفيف الشعر، وستكون الدراسة في المعهد أسبوعية، بصفة مبدئية، انتهى ما نشر في جريدة الأهرام.

هذا بالإضافة إلى الأموال الكثيرة، التي تستهلك في شراء أدوات التجـميل فقد بلغ عدد الصـالونات في القاهرة وحدها ألف صـالون ، لتصفـيف وتجميل الشــعر،

ويوزع في العام ١٠ ملايين قلم روج ، وعطر، وبودرة.

ولم يقتصر هذا البذخ والسفور والانحلال عن ناحية دون ناحية ، بل تجاوزها إلى دور التعليم المختلفة، من معاهد التربية وكليات الجامعة ، وكان المفروض أن تُصان هذه الدور من هذا الهبوط.

* * *

علاج سريع لهذه الظواهر

لابد من وضع خطة حازمة للتخلص من هذه الظواهر التي عصفت بقلوب فتياتنا وفتنت شبابنا، وشغلتهم عن مهماتهم الأساسية ، وتتلخص هذه في عدة نقاط أساسية :

١ ـ نشر الوعي الديني، وتبصير الناس بخطورة الاندفاع وراء مزاعم الحرية والتقدم .

٢ ـ المطالبة فوراً بسن قانون لحماية الأخلاق.

٣ ـ منع الصحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام من نشر الصور العارية، ووضع رقابة حازمة على مصممي الأزياء.

٤ ـ منع مسابقات الجمال، والرقص الفاجر، وما يُسمى بالفيديو كليب، وتحقير كل ما يعمل أو يساعد على هذا الأمر.

٥ ـ اختيار ملابس مناسبة ، شرعية ، تغطي جسد المرأة وتمنع ظهور مفاتنها وتكليف كل من يشتغل بعمل رسمي بارتدائها.

٦ ـ أن يبدأ كل إنسان بنفسه وبمن يعول من زوجة أو بنت.

٧ ـ الإشادة بالفضيلة ، والحشمة والصيانة والعفة، والتستر وإذاعة مضار الرذيلة والانحلال ومفاسده.

٨ ـ العمل على شغل أوقات فراغ الشباب والفتيات؛ حتى لا يتسع لديهم الوقت لمثل هذا العبث.

٩ ـ الاستعانة بخبراء وعلماء النفس والاجتماع من المسلمين، وعلماء الشريعة لوضع طرق للعلاج سريعة وحاسمة.

* * *

الإسلام والاختلاط والتبرج

إن أعز ما تملكه المرأة الشرف، والحياء، والعفاف، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة، وكيانها، في أسمى صورها، وليس من صالح المرأة ولا المجتمع، أن تتخلى عن الصيانة والاحتشام ، لا سيما وأن الغريزة الجنسية هي أعنف الغرائز ، وأشدها على الإطلاق ، والتبذل مثير لهذه الغرائز، ووضع الحدود والقيود، والسدود أمامها، مما يخفف من حدتها، ويطفئ جذوتها ، ويهذبها تهذيبًا جديراً بالإنسان وكرامته، وعلوه على سائر الكائنات ، ومن أجل ذلك فقد عني الإسلام عناية عظيمة خاصة بملابس المرأة ، وقد تناول القرآن ملابس المرأة مفصلاً لحدودها على غير عادة القرآن في تناول المسائل الجزئية.

لأن الملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والتحضر، والتجرد منهما إنما هو ردة إلى الحيوانية ، وعودة إلى الحياة البدائية.

والحياة إذا تراجعت إلى الوراء حدثت لها نكسة تبدل آراءها ، وتغير أفكارها، وتجعلها تعود إلى القهقرى، ناسية رقيها الإنساني، وإذا كان اتخاذ الملابس لازمًا من لوازم الإنسان الراقي ، فإنه للمرأة ألزم وأقوم ، لأنه هو الحفاظ الذي يحفظ عليها نفسها ودينها ، وشرفها ، وعفافها، وهذه الصفات أولى بها من الرجل.

ولذا فقد اهتم الإسلام بهذه القضية قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ...﴾ الآية [النور: ٣١] فبين في هذه الآية ما يحل كشفه وما يجب ستره.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ الآية [الأحزاب] وتوجيه الخطاب هنا للنبي ونسائه، وبنات المسلمين، دليل على أن جميع النساء مطالبات بتنفيذ هذا الأمر، دون استثناء واحدة منهن مهما بلغت في الطهر ، ولو كانت في طهارة وعفاف وفضل بنات النبي ونسائه، وحتى ولو كانت المرأة عجوزاً لا رغبة فيها، قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ...﴾الآية إلى آخرها [النور: ٦٠] ، ثم حدد الإسلام السن التي تبدأ بها المرأة في الالتزام بالزي الذي يستر سائر جسدها، فيقول الرسول

ﷺ لأسماء - رضي الله عنها - «**يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح لها أن يُرى منها إلا هذا وهذا**» ، وأشار إلى وجهه وكفيه(١) .

والمرأة بذلك فتنة ، ليس أضر على الرجال منها ، لقوله ﷺ : «**إن المرأة إذا أقبلت، أقبلت في صورة شيطان (أو معها شيطان) وإذا أدبرت ، أدبرت ومعها شيطان**»(٢) والمعنى ليس كما يظنه البعض أن ذلك ينقص من قدر المرأة أو فيه امتهان لها، لكن هذا تحذير من شدة الفتنة بها، ولعظم قدرها، ومكانتها على قدر خطرها ، وشدة هذا الخطر، فإذا كان الأمر عظيمًا في نفسه فالفتنة به أعظم، والبلية به أقوى، أما تصوير الشيطان بها هنا، فكأن الشيطان يزينها في أعين الرجال بطريقة أو بأخرى سواء أكان ذلك باستغلاله لها، والعبث بعقلها حتى تظهر مفاتن جسمها وزينتها والخروج بها عن إنسانيتها وكرامتها ، أو بترغيب الرجال فيها.

وتجرد المرأة من ملابسها، وإبداء زينتها يسلبها أخص مميزاتها، وهو الحياء ، والشرف، ولذا فلا يطهرها مما التصق بها من رجس وإثم ، سوى عقاب الله تعالى لها، والأمر كما قيل: «إن من النساء من لو تجلت (أي ظهرت) لإبليس لفتنته).

وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ : «**صنفان من أهل النار لم أرهما: رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**»(٣) . ومعنى كاسيات عاريات، أي يلبسن ثيابًا شفافة يرى منها مفاتن الجسم، فكأنهن عاريات، وهذا واضح ومنتشر يراه الجميع، نسأل الله السلامة من الفتنة بهن.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب اللباس برقم (٤١٠٤) (٤/ ٣٥٧، ٣٥٨) .

(٢) رواه مسلم بلفظ قريب ، كتاب النكاح برقم (٩) (٢/ ١٠٢١) وأبو داود في النكاح باب ما يؤمر به من غض البصر، برقم (٢١٥١) (٢/ ٦١١) والترمذي بلفظ مختلف في كتاب الرضاع برقم (١١٥٨) (٣/ ٤٥٥) وقال : حديث صحيح غريب.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة - وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء برقم (٥٢) (٤/ ٢١٩٢) وكتاب اللباس والزينة - وباب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، برقم (١٢٥) (٣/ ١٦٨٠) وأحمد بلفظ قريب (٢/ ٣٥٦ ، ٤٤٠).

وفي الحديث عن موسى بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: مرت بأبي هريرة امرأة، وريحها تعصف (أي يشتد طيبه) فقال لها: أين تريدين (أي إلى أي مكان تذهبين) يا أمة الله؟ قالت: إلى المسجد، قال: وتطيبت ؟ قالت: نعم قال: فارجعي واغتسلي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يقبل الله صلاة امرأة خرجت إلى المسجد، وريحها تعصف ، حتى ترجع فتغتسل**»(١) وإنما أمرت بالغُسل ، حتى تذهب ريحها.

فهنا واضح النهي عن التطيب وإن كان للمسجد.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يخشى من هذه الفتنة الشديدة، فكان يحذر منها قبل وقوعها، فقد روى عنه، أنه كان يتعسس ليلاً، فسمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل من سبيل إلى نصر بن حجاج

فقال: أما في عهد عمر فلا، فلما أصبح، استدعى نصر بن حجاج، فوجده من أجمل الناس وجهًا وزينة، فأمر بحلق شعره، فازداد جمالاً، فنفاه إلى الشام، درءا للفتنة به، فكما أن المرأة تفتن الرجال ، كذلك الرجال قد يفتنون النساء.

وأما الاختلاط فقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إياكم والدخول على النساء، إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل : يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ (٢) فقال: « **الحمو الموت**»(٣) .

وقال في الحديث الآخر: «**لا يخلون رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما**»(٤) والاختلاط المستهتر من شأنه توسيع دائرة الحوار وفتح مجال للشيطان ووسواسه ،

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الترجل ـ باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج (٤١٧٤) (٤ / ٤٠١) وابن ماجه برقم (٤٠٠٢) (٢/ ١٣٢٦) وإسناده متصل، ورواته ثقات.

(٢) الحمو: أخو الزوج وأقاربه.

(٣) الحمو الموت: أي أن دخول أحد من أقارب الزوج على زوجته في غيابه من الخطورة بمكان وكأنه الموت ومصيبته. والحديث رواه أحمد وغيره بسند صحيح، وصححه الألباني في الجامع برقم (٢٦٧٧).

(٤) حديث صحيح رواه أحمد وغيره.

والنفس مقهورة نحو الشهوة، ودفعها عن ذلك مع التعرض للفتنة أشد، ولذا فقد حذر الإسلام من خطورة هذا الاختلاط والاجتماع إلا للضرورة وبالضوابط الشرعية المعروفة من وجود ذي محرم من المرأة معها حتى يتحقق لها الأمن والسلامة من الفتنة.

* * *

هل يجوز للوالدين أن يتدخلا في اختيار الأصدقاء ؟

بداية يمكن لنا أن نقرر مسألة مهمة، يؤكدها علماء الاجتماع، وهي أن للشاب المراهق حرية اختيار الصديق، وأن التدخل المباشر في مسألة اختيار الصديق يمثل عقبة كؤوداً في سبيل إصلاحه إن كان ممن يتجهون بفطرتهم إلى طريق الانحراف، وترك المراهق في تدبير شئون حياته شيء لا بد منه ومنحه الحرية الكاملة في ذات الوقت ـ لا سيما عند اختيار الأصدقاء أيضًا شيء مضر به، ويمكن لنا هنا أن نضع خطوات محددة في التعامل مع المراهق:

١ ـ احترام عقلية الشاب في هذه المرحلة، ومنحه الثقة بنفسه، مع إشعاره بالمسئولية وإن من مقتضيات المسئولية تحمله أعباء تصرفاته، وأن يكون على قدرها، ويجب أن يعلم أن الحرية التي منحت له لابد وأن توظف لصالحه وأهدافه، ويجب أيضًا أن تكون هذه الأهداف نافعة له وصالحة ، ثم نبين له مدى الخطورة التي يمكن أن تواجهه من جراء الصحبة السيئة، ثم نترك له حرية الاختيار، وبعد مناقشته نترك له القرار، ولا نحدد له بصفة خاصة شخصًا بعينه ـ أي في التحذير من صحبته ـ حتى لا يأخذ معنا طابع العناد.

٢ ـ يمكن لنا أيضًا أن ندعو أحد الأشخاص الذين لهم مكانة خاصة في قلبه كالعم أو الخال أو ابن الخال الصالح، يتكلم معه، مع عدم الإشارة إلى أشخاص بذاتهم في مسألة الصحبة، حتى يظل الحب والاحترام في تقديره مع من يتكلم معه، فيتحدث معه هذا الشخص الذي يحترمه حول معنى الصداقة وأثرها الصالح أو السيء وإخباره أن الصديق سيئ السمعة دليل على شخصية من يصاحب.

قال القائل:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدى

وقال النبي ﷺ : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يُخالل»[1] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه الحاكم وصححه.

٣ ـ يجب أن نخوفه من صحبة السوء ، وأن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين كما أخبرنا الله تعالى، فجميع الأصدقاء في الحياة الدنيا سيكونون أعداءً يوم القيامة إلا أصدقاء الصلاح والإيمان ، وصاحب السوء يقول لصاحبه يوم القيامة: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٨ ـ ٢٩] وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ : «**مثل الجليس الصالح، والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (أي يعطيك) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبًا . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**»(١) .

والمكان الطبيعي للصحبة الطيبة هو المسجد ، قال النبي ﷺ : «**المسجد بيت كل مسلم**» والمكان الطبيعي لصحبة السوء أماكن اللهو والخنا والفسق والفجور كالملاهي والنوادي، فلنحببه في المسجد وحضور مجالس العلم والعلماء ولنمنعه من الذهاب لأماكن اللهو والخنا، وليكن ذلك في وقت مبكر، كما يجب أن يكون الآمر له قدوة، فكيف يدفعه الأب إلى صلاة المسجد وهو لا يصلي في المسجد، ولنعلم جميعًا أن المحبة التي تدوم هي المحبة في الله، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)﴾ الآيات [الصافات] وأزواجهم: أشباههم ونظرائهم ، أي من كانوا على شاكلتهم ، وساروا على نهجهم.

٤ ـ القدوة الحسنة: إن الشاب المراهق يأخذ أخلاقه من قدوته دائمًا، فإذا أحب إنسانًا قلده دون اختيار منه، فإذا كان الأب والأم على درجة كبيرة من الأدب والأخلاق الكريمة ، ولا يخالفان ما يقولان ، فإن الأبناء سيقلدونهم فالأب الذي يدخن وينهى ابنه عن التدخين أب جاهل لا يدري بديهيات التربية بل إن مشروع الأبناء مشروع فاشل ، فإنه مهما أتى بحجج وبراهين عن أضرار التدخين ، وأنه لا يقدر على تركه ، فإن ذلك ليس مانعًا كافيًا لكي يقلع الابن مثلاً عن التدخين، فقبل ما تنهى ابنك عن فعل ، يجب أن تنتهي عنه أنت أولاً، وإذا أمرته بأمر يجب أن لا يرى منك مخالفة ما أمرت به، فالحق عنده ما كان حقًا عندك وفي أفعالك.

---

(١) رواه البخاري .

وأما إذا كان الأبوان على غير ذلك، فانتظر من الأبناء كل سوء فاضح فإذا كانت الأم تخرج من بيتها سافرة متبرجة متزينة، كاشفة لمفاتن جسمها، فلا تنتظر من البنت غير ذلك، ولتنتظر ما هو فوق ذلك .

٥ ـ عدم استخدام العنف في التربية، لأن استخدام هذا الأسلوب لن يأتي بفائدة، فهو أسلوب ينشأ عن شخصية ضعيفة ذليلة، وهذه الصفات ينبغي ألا يتصف بها أهل الإيمان، وأسلوب الشدة والعنف انتقده العلماء قديمًا وحديثًا ، قال ابن خلدون: «من كان دأب تربيته استخدام القهر والعنف من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر، وضيق عليه النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمله على الكذب، والخبث خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة، ولذلك صارت له هذه عادة وخلقًا، وفسدت معاني الإنسانية التي له، إن من يعامل بالقهر يصبح حملاً على غيره؛ إذ هو يصبح عاجزًا عن الذود عن شرفه وأسرته تخلو من الحماسة والحمية، على حين يقعد على اكتساب الفضائل، والخلق الجميل، وبذلك لن تنقلب النفس عن غايتها ومدى إنسانيتها»(١) .

فالرحمة والرفق في التعامل من خلق الأنبياء ، أما نحن فنرى الرحمة قد نزعت من قلوبنا، ويا ليت العنف يأتي بخير أو كبير فائدة، نعم. فالشدة قد تنفع أحيانًا، لكن يجب أن نفرق بين استعمال الحزم والأخذ بالقوة في بعض المواقف ، وبين استخدام العنف كأسلوب دائم في التعامل مع المراهقين نعم إن هؤلاء الذين يبطشون بأبنائهم ، مستعينين بجهلهم، وسرعة عقابهم، لا يجنون إلا كل سوء، فماذا يحدث لو اتخذ الأب ابنه صديقًا له، واحترمه وعامله كرجل كبير، له عقليته وتفكيره المستقل، بل وحاوره، لا شك أن الابن سيقدر ذلك لوالده، وسينقاد له طوعًا حتى ولو لم يقتنع به، فحينما تظهر احترامك وتقديرك لجانب من جوانب شخصيته ، فإن ذلك يجعله ينفذ ما تقوله عن طيب خاطره، لكن استخدام أسلوب الطفولة والنقد، بل والتحطيم، والتعجيز، والتجاهل الدائم لأفكاره وتصوراته، كمن يقول لابنه: لا

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٢/ ١١٢).

تعتقد أنك بفعلك هذا ستصبح رجلاً في يوم من الأيام، فيجب عليك أن تسمع كلامي دون مناقشة وإلا ستواجه المصير المحتوم ، فأنت ما زلت صغيراً ولا تفهم شيئًا» هذا الأسلوب سيخلق معه جواً من العناد والتمرد، بخلاف استخدام أسلوب التكبير به والتشجيع له، مع وضعك في الحسبان أنه ما زال ولا زال يهتم ببعض أمور الطفولة كحب الظهور أمام الأصدقاء والاهتمام ببعض الجوانب التافهة ، فلا تسخر منه، لكن علمه أخلاق الرجال، وكرر على سمعه سيرة العلماء والعظماء، وكرر وكرر ، فسوف يتعلم في يوم ما، فهو بطبعه يميل إلى أخلاق الكبار.

وتعلم أنت من حكاية أنس مع أمه، ففي الحديث قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه : «أتي عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، قال: فسلم علينا، فبعثني في حاجة ، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلتُ: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سر ، قالت: لا تحدثن بسر رسول الله أحداً.

قال أنس : والله لو حدثت بها أحداً لحدثتك يا ثابت»[1] وثابت هو راوي الحديث عن أنس ـ رضي الله عنه ، وفي الحديث أيضًا أدب يجب أن نتعلمه ، وقد غاب على كثير من شباب اليوم، وهو إذا التقى شاب بآخر وتحدثا سويًا في أمر ما، ثم تفرقا ، ولم يوصِ أحدهما الآخر بكتمان السر، وجب عدم إفشائه ، حتى ولو لم يؤكد أحدهما لصاحبه ضرورة كتمانه ، ودليل ذلك، قوله ﷺ : «**إذا التفت المرء فهي أمانة**» يعني إذا تفرق الأصدقاء أو الصديق عن صديقه، أصبح ما حدث بينهما أمانة في عنقهما، ووجب عدم ذكر ما دار بينهما في ذاك الحديث، فهذا من حسن العهد.

ثم انظر كيف تعامل النبي ﷺ مع أنس وهو غلام، على أنه رجل فاستأمنه على سره !، فهذه تربية لأنس حتى يتعود على خلق الرجال من حفظ الأسرار، وانظر كيف ساعدته أمه عندما سألته عن سبب تأخره، وعدم إصرارها على معرفة الأمر،

(١) الحديث رواه مسلم وغيره.

بل أكدت له ضرورة المحافظة على أسرار الغير ثم دعمت عنده هذه المعاني ، ومنحته ثقته بنفسه.

فللمراهق وشاب العشرين على وجه التحديد صعوبات ودوافع ورغبات تتجاذبه نواحٍ كثيرة وهموم كبيرة، فيجب أن نتعامل معه بحكمة حتى يجتاز هذه المرحلة بسلام وأمان عن طريق الحوار الهادئ ، دون استخدام قوة أو عنف، فإذا تحدثت معه بهدوء هدأت نفسه وسكنت وآمنت وإذا ناقشته بسعة صدر، واحترام لآرائه ، فإنه لا شك سيتعاون معك بل إذا استخدمت أسلوب المشاورة كان أفضل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...﴾ [آل عمران: ١٥٩] فإذا تعاملت بفظاظة قلب وكان معك الحق، فلن يقبله منك أحد، لأن النفس لا تقبل إلا ممن أحبته واقتنعت به.

٦ ـ عدم ممارسة الخلافات الزوجية أمام الأبناء، لا سيما في مرحلة المراهقة بداية نقرر أنه لا بد من وجود خلافات، ويجب أن يعلم الأبناء ذلك جيداً، لكن الاختلاف المألوف الذي يسوده جو من الاحترام والتقدير فلا يصدر من أحد الزوجين لفظ جارح ولا كلمة نابية، ولا تصرف غير لائق من ضرب أو إهانة، فإن ذلك يولد في نفوس الأبناء روح العداوة ، ويترك أثرًا سيئًا في نفوسهم ، فإن عيونهم كالكاميرا المسجلة لأنهم يحفظون كل شيء، وتطبع في ذاكرتهم.

وعلى سبيل المثال ، فإن الأب الذي يصدر منه إهانة لزوجته أمام أبنائه ، يعطي القدوة السيئة لولده وحين يتزوج هذا الشاب المراهق فيما بعد سيفعل مع زوجته ما فعله أبوه مع أمه، والبنت كذلك إذا رأت أمها تُضرب وتُهان من أبيها فلا شك أنها ستكره الزواج، لتصورها أن جميع الأزواج يفعلون ذلك مع زوجاتهم، كذلك إذا اختلف الأبوان وصدر من الأم إهانة لزوجها، فهي بذلك تترك أسوأ الأثر في نفس البنت على مسألة الأمومة واحترام الزوج الذي هو بدوره سيد البيت وقائده، فإهانة الأب أصبح عندها شيئًا مألوفًا فإذا تزوجت البنت فقد يصدر منها مثل ما قد صدر من أمها ، وتعتقد بدورها أن ذلك ليس إلا أمرًا عاديًا مألوفًا، وقد يكون هذا السلوك السيئ سببًا رئيسيًا في فشل حياتها الزوجية ، ويرجع الأمر إلى أمها فقد كانت قدوة

لبناتها أما الزوج فيجب عليه أن يكون صبوراً على أخلاق زوجته.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ...﴾ [النساء: ١٩] وقال ﷺ : «**لا يفرك**(١) **مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا، رضي منها خلقًا آخر**»(٢) .

ولتعلم الزوجة قدر زوجها ولتحترمه أمام أبنائها ولا تؤذيه مهما يكن الأمر بينهما ولتنظر إلى مستقبل أولادها، وقد قال النبي ﷺ : «**والذي نفسي بيده لا تؤدي امرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله**»(٣) .

فطاعة الزوج واحترامه أمر واجب ، فإذا عصت المرأة زوجها سقطت من نظر أبنائها، وتحولت الحياة الزوجية إلى أحزان وآلام.

٧ ـ إعداد الشباب لمواجهة الكوارث الفكرية: إن ما يتعرض له العالم الإسلامي اليوم من نكبات متتالية ، ونزاعات عصبية وقبلية وسيل من الأفكار المتنوعة والمتشابكة في ذات الوقت ، لا يتيح بحال من الأحوال للشباب إلا فرص الهزيمة وفرص الفشل، وتناول هذه الأفكار من قبل وسائل الإعلام المختلفة لهو من الخطورة بمكان إذ اعتمد على مرجعية غير إسلامية في بعض الأحيان ، وربما غير أخلاقية في أحيان أخرى، والشباب تتجاذبه أفكار وشهوات وشبهات شتى ، يقف بذلك متحيراً تائهًا ، لا سيما وأن البرامج التي تذاع لحل المشكلات التي تواجه الشباب في حقيقتها برامج موجهة لإفساد هذا الجيل ، حتى يصبح ركامًا من تراب، وقد قيل في ذلك:

مؤامرة تدور على الشباب ... لتجعله ركامًا من تراب

مؤامرة تدور بكل بيت ... تدبرها شياطين الخراب

مؤامرة تقول لهم تعالوا ... إلى الشهوات في ظل الشراب

مؤامرة نرى منها عظامٌ ... تدبرها رؤوس في الفساد

شيوعيون نجدهم من يهودٍ ... صليبيون في لؤم الذئاب

---

(١) يفرك: يكره ويبغض.

(٢) الحديث رواه مسلم وغيره.

(٣) رواه ابن ماجه وصححه الألباني في الصحيحة برقم (١٧٣).

تفرق شـــملهم إلا علينا فصرنا كالفريســـة للكلاب

والبرامج التي تُعرض يقدمـها أساتذة متخصصـون في عدائهم للإسلام والمسلمين فيـتكلمون في أمـورٍ تخالف الشـرع الحنيف والقضايـا المُسلم بها منذ قـرون متطاولة ويميعون القضايا الكبيرة والتي هي من ثوابت الدين والعقيدة.

فيجب تعليم الشـباب معنى الحرب الثقافـية، وتحديد مفاهيم الحرية الشـخصية، ووضع ضوابط وحدود لهذه الحرية ، فليس معنى الحـرية أن ينطلق الشباب يفعلون ما يشاؤون في سـبيل إرضاء نزواته ورغـباته، فكلمة «عش حـياتك» كلمة قـديمة أثبتت خسـارتها في الغرب منذ زمن، وراح الـغربيون الآن يبـحثون عن كل سـبيل وطريق يخرجـهم من الدمار الذي لحـق بهم في شتى نواحي الحـياة ، وما دام الـغرب وهذه الحال ، فـقد أراد ألا يذوق ويلات الخراب وحده، فـراح يسعى حثـيثًا لبث سمـومه وأفكاره عبر وسائل الإعـلام وللمسلمين خاصة، فهو يكره الفـضيلة لأنه يراها تخلفًا وعارًا، وفصل الدين عن الدولة وحصره في المسجـد وفقط ، فلا يكون المسلم مسلمًا إلا في مسـجده، فـإذا خرج منه أصـبح غير مـسلم، إنما تحكمه الأعـراف والتقـاليد المسـتوردة والفـاسـدة ، وهذه الدعـوات ليست بـجديدة علينـا، بل منذ زمن طويل والغرب قد دسَّ عـملاءه ومفكريه يتكلمون بألسنتـنا وهم من بني جلدتنا ، لكنهم قد صُنعوا في الغرب ، لكن الله سبـحانه إذا أراد شيئًا هيأ له أسبـابه ، فقد باءت بحول الله وقوته تلك المحاولات بالفـشل، وقيض الله لهذا الدين علماء ومفكرين انتـصبوا يدافعون ويفندون شبـه الأعداء لكن ما لبثت الأمور أن تعود كمـا كانت ، وما انتهت الحرب، وعادت أقذر ما كانت وأشـد وأعنف ، وشن الأعداء الحرب على كل فضيلة وكل قيـمة، فـعمدوا إلى تجـفيف المنابع، ومـحاربة الدعـاة إلى الفضيلـة ، وتشويه الإسلام ومقدسـاته ثم جاؤوا بعدتهم وعداتهم وعجرهم وبجـرهم إلى بلادنا ليعقدوا المؤتمرات والمؤامرات حتى يتـوجهوا بنا حيث شاؤوا، ليلعبـوا بأفكار الجهلاء عندنا ، لأنهم علموا أننا دائمًـا متبوعين، فـقالوا: بحرية الرأي وحـرية الفكر، وحرية المرأة، وحرية الطفل، فـماذا عساهم يقـصدون ؟ أيقصدون حـرية المرأة في فلسطين أم حرية الطفل في العراق، أم ينادون بحقوق الإنسان في المأكل والمشرب والملبس كيف ذلك،

ونصف الكرة الأرضية يعانون من قلة الطعام والشراب وخصوصًا بلاد العالم الثالث والعالم الإسلامي، فأكثر من مليون طفل في العراق يموتون جوعًا بسبب نقص الغذاء، هل قالوا بحرية الطفل في التعليم ونصف سكان العالم النامي يتمتع بالأمية وهم ينظرون ، قد يكون مقصدهم من الحرية ـ الحرية الجنسية ـ فقد أخذوا علينا العهد والميثاق ألا نمنع النساء والأطفال من ممارسة الحرية الجنسية، فقالوا: «حرام عليكم التضييق على النساء، والتخلف والرجعية التي منعت المرأة من ممارسة حريتها» فأي حرية يدعو إليها هؤلاء : ما علاقة الحرية بالفضيلة وما علاقة تعلم المرأة بالسفور؟

هل الإسلام منع المرأة من ممارسة حياتها الطبيعية وحريتها ، هل الإسلام قال بعدم تعليم المرأة، وهل حجاب المرأة والتزامها بشرع ربها يمنعها من التعليم والعمل إنهم يريدون شيئًا آخر ، يريدون حرية جنسية دون تشدد وتعصب ، فكيف يخافون على شبابنا وفتياتنا وكيف يريدون لنا الخير؟

إنها العولمة المقيتة فعلى شباب اليوم أن يعي الدور جيدًا، ويعلم أن هؤلاء الذين يحاربون الفضيلة باسم الحرية، ويقتلون العفة والرجولة والكرامة باسم التطور والتقدم، فهؤلاء أعداء الرسل جميعًا، وأعداء الشرائع جميعًا، إن موسى عليه السلام لم يأمر بالفحشاء، وعيسى عليه السلام لم يُشرِّع الشذوذ، ولقد سار على دربهم محمد ﷺ فجميع الأنبياء مصدرهم واحد ـ هو الوحي ـ وحي السماء ـ وشرائع الله سبحانه ما جاءت إلا لإصلاح البشرية جميعًا.

إن شباب اليوم يجب أن يعلم ما يدبر له، وأن يقف على أرض ثابتة راسخة وأن يعلم أن دينه ـ دين الإسلام ـ أفضل الأديان، ومحمد ﷺ كان ينهى عن الفحشاء المنكر والبغي، وأما هؤلاء الذين يدعون إلى الانحلال أعداء الشرائع جميعًا ودعاويهم باطلة لا تقوم على قدم وساق، وبعيدة بعدًا تامًا عن وحي السماء ، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧] .

إن ملايين الدولارات التي تنفق ليلاً ونهاراً ما هي إلا مكر وخديعة ، قال تعالى:

﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...﴾ [سبأ: ٣٣] يعقدون المؤتمرات تارة باسم الأسرة وتارة باسم المرأة وحريتها، وتارة باسم الطفل وحقوق الطفولة، وغير ذلك من الأسماء ، لكن الحقيقة معروفة ، وقد لا يخفون شيئًا، بل يتكلمون بكل صراحة وكل وضوح دون حياء ولا استحياء(١) .

يقولون بحرية العقيدة وحرية الأخلاق وحرية الجنس للأطفال الصغار والكبار والنساء والشباب، يريدونها فحشاء واضحة، يريدونها انحلالاً في كل شيء، فأي شباب هؤلاء الذين لا يدرون ماذا يُراد بهم، وأي نساء هؤلاء الذين تركوا أنفسهم سلعة رخيصة في أيدي الأعداء يلعبون بعقولهم وأجسادهم وهوياتهم.

٨ ـ التركيز على موضوع الهوية الإسلامية ، فمشكلة تمييع الهوية وفقدانها تؤرق الكثير من المراهقين والمراهقات، فهذا يدفعهم دفعًا إلى التقليد الأعمى تارة وإلى الغرب تارة، فتنتابهم الذبذبة والقلق، فلا هم مسلمون حقًا ولا هم مثل هؤلاء، ولا يهتدون سبيلاً ، هذا التخبط بسبب التناقض الواضح في المجتمع الذي يعيشون فيه، يجد التناقض في القول والعمل، وبين البيت والشارع، يجده واضحًا على المستوى الفردي والجماعي.

ففي المدرسة يجد المعلم يحتقر المدير من ورائه والمدير يسخر من الزائرين. . . إلخ فيرى النفاق بعينه، فماذا عساه أن يفعل ؟ هل هذه الأخلاق صحيحة أم لا؟ وإن

---

(١) يقولون بالحرية الجنسية بكل صراحة ويوصون بها للمراهقين ، ويقولون بحرية الإجهاض للمراهقات، والتوصية بعدم العقاب في آخر المطاف ، وعن المساواة بين الرجل والمرأة ، وهم لا يقصدون بذلك المساواة الكبيرة التي منحها الله سبحانه للمرأة والرجل من الحقوق والواجبات والثواب والعقاب بل يقصدون حق المرأة في أن تفعل ما تشاء وقتما تشاء وكيفما تشاء . . . يعني الانحلال الكامل دون رادع من شرع أو خوف من رب أو أب وليس هذا من عند أنفسنا، إنما جاء ذلك في توصيات مؤتمر السكان والتنمية الذي عقد منذ عام ١٩٩٥م:
فما دور الشباب إذن تجاه هذه الأزمات ؟!
لمزيد من البحث انظر : «وثيقة مؤتمر السكان والتنمية » رؤية شرعية للدكتور الحسيني سليمان ، وكتاب الأمة عدد (٨٣) جمادى الأولى ١٤١٧هـ.

كانت خطأ فلماذا يفعلها هؤلاء الذين هم قدوة له؟

وها هو يرى الفتن في الشوارع والنوادي والطرقات... إلخ فإذا رجع إلى البيت وجد التليفزيون يعرض الرقص الشرقي والغربي والفيديو كليب على أعلى مستوى، وإذا بالقبلات الحارة والأحضان الدافئة تنتظره... إلخ فإذا ما رأى ذلك ، وقد اشتدت عاطفته وشهوته وثارت ، فلن يبقى أمامه إلا الانهيار أو إتيان هذه الأفعال مهما كلفته من خسارة أخلاقية أو نفسية فهل تعتقد أن شباب اليوم لا يفهم ولا يعقل هذه المتناقضات؟ فهو يتساءل بينه وبين نفسه ـ بعد خديعة الكبار له ـ لم هؤلاء يفعلون عكس ما يقولون؟ ما هذه المعايير المزدوجة على كافة المستويات؟

فهذه الحيرة تدفعه إلى الغرب ـ الذي يراه صريحًا في دعواه ـ وإلى تقليده والتمسك به، لكنه قد يفاجأ ـ إن كان مثقفًا وقارئًا جيدًا ـ بأن الغرب هو السبب الرئيس وراء هذه الاختلافات التي دبت في أمته فهو السبب في الأزمات المتتالية التي تحياها أمته، فهذا الفساد الذي يدعمه وينفق عليه ،ويحميه بكل مؤسساته، وإذ به هو أيضًا يقع في نفس الفخ وفي ذات التناقض ،حتى يكيل بمكيالين، وعندها تزداد الحيرة، وينتابه حالة القلق والاضطراب ،فيرفض الشرق والغرب ، وإن لم تدركه عناية الله سبحانه وفضله وكرمه انساق حتى وراء هؤلاء وهؤلاء.

نعم: إنها أزمة الهوية ، يقول الشاب في نفسه: من أنا؟ وماذا أفعل؟ وماذا يكون؟ وما هدفي في هذه الحياة؟ ما هي حقًا معايير الصواب والخطأ؟ هذا كله يجب توضيحه والإجابة عليه بوضوح ودون نفاق أو مداهنة ، حتى يعرف المراهق سبيل الرشاد وتحقق له ذاتيته وهويته، ويجب أن تحل تلك التناقضات حتى يتبين له الحق والباطل.

يجب أن ينشأ ويتعلم ويعلم أنه مسلم منذ صغره ، وأن هدفه هو رضا الله سبحانه وأن عبادة ربه هي غايته ، وأن يعلم أن العبادة ليست في الصلاة والزكاة والحج وفقط ، بل للعبودية مفهوم أوسع من ذلك، فهي كلمة جامعة لكل معاني الخير والبر، وتعني التسليم لأمر الله والاستسلام له والخضوع والانكسار بين يديه، والسعي لمرضاته في كل وقت وكل حين.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

فعلى سبيل المثال القيام بعمل ما إن قصد به أكل الحلال وكف النفس عن طلب الحرام، وإعفاف البدن كان هذا العمل عبادة ، كذلك الطعام والشراب والنوم إذا قصد بأي منهم التقوِّي على طاعة الله وبلوغ مرضاته ، كان ذلك كله في ميزان الحسنات، وهكذا يتسع مفهوم العبودية ليشمل جميع مناحي الحياة، وبعد ذلك يجب أن يعلم الشاب أنه لن يبلغ أعلى درجات الكمال ومعالى الأمور إلا بالإيمان بالله تعالى ، فلا ميزان أفضل من ميزان التقوى والعمل الصالح قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وليعلم الإنسان أنه مهما علا قدره في الدنيا ومناصبها، ومهما بلغ الذروة في المال والجاه والسلطان، فلا وزن له ولا قيمة إلا بالتقوى ، ولا عزة ولا كرامة إلا بالتمسك بدين الله وشرعه.

فلا ينخدع الشاب بزخارف الحياة الدنيا ، ولا ينبهر بما وصل إليه الغرب في شتى الفنون والعلوم، فإن ذلك إن لم يدعم بالإيمان فلا بقاء له وسيؤول حتما إلى الزوال، وليعلم أن الأخلاق الكريمة هي أساس كل قيمة وأساس كل حضارة وأن الأمم إن عجزت عن الامتثال بالأخلاق فلا قيام لها ولا دوام لها، والحضارة التي أفلست وخابت في تحقيق مجال القيم والأخلاق فمآلها إلى الزوال مهما طال بها الزمن.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فيجب عليه ألا يقبل إلا معالي الأخلاق، فلا يهن ولا يحزن، فهو الأعلى دائمًا ودينه فوق جميع الأديان ونبيه هو أفضل الأنبياء ، قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وأن الحسن ما استحسنته شريعته ، والحق ما أمرنا به ، والباطل ما قرره الشرع، وأن الميزان الحق لأي أمر عن طريق الشرع ومبادئه لا غيره وأن أقوال وآراء البشر إنما هي تابعة لمقررات وثوابت الشريعة، فما كان منها موافقًا لها اتبعناه ، وما كان مخالفًا

لها اجتنبناه .

ويجب أن يعلم أن التشبه بالغرب في ملبسه أو مأكله أو مشربه ليس من دين الإسلام في شيء، بل هو ممقوت، وصاحبه سيحشر يوم القيامة مع من تشبه به . قال النبي ﷺ : **«من تشبه بقوم فهو منهم»**(١) .

فلا يصح بحال الجري وراء كل جديد وكل موضة ، وهذا التحذير للفتيات على وجه الخصوص. وليكن أمام أعيننا دائمًا قول النبي ﷺ : « **لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعًا بذراعٍ ، حتى إذا دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» ، قالوا: اليهود والنصارى؟ ! قال: « **فمن** ؟!!» أي فمن غيرهم، وهذا جواب صريح في أن غالب هذه الأمة سيتبع طرائق وأعمال اليهود والنصارى في آخر الزمان، حتى يصل التقليد حتى في أدق وأصغر الأشياء، وفيه دليل أيضًا على أن هذا الاتباع والتقليد إنما هو على غير علم أو بصيرة، إنما هو مجرد تقليد ليس إلا .

* * *

(١) حديث صحيح رواه أبو داود وأحمد وغيرهم.

٩ ـ غلط فادح في رعاية البنت

إن من أعظم، بل من أهم عناصر التربية عند البنات، إعطاءها فرصة التعبير عن رأيها وذاتها، وإشراكها في الأمور ، وإن لم تكن تخصها، حتى نستخرج منها ما هو كامن في نفسها ، وفي فكرها، وفي عاطفتها مع عدم إعطاء البنت في السن المبكرة حرية زائدة عن الحد، اعتماداً على ما يعتقده بعض الآباء من ثقة موهومة في تربيتها، والركون إلى تلك الثقة يعطي الفرصة لبنات الجيل في الانحراف عن جادة الطريق، والانزلاق في المطلوبات ، والشهوات ، فترك الحبل لها على الغارب ، وعدم سؤالها ـ بصفة متكررة عن الأماكن التي تذهب إليها، ومن هن صديقاتها ، لقد أضحت هذه الحرية الفجة ينبثق منها رائحة كريهة ، نجد آثارها السيئة فالبنت في هذه السن المبكرة (سن المراهقة ـ تحت العشرين) لا تكاد تقدر عاقبة التصرفات، وكنه الأشياء، ولا تستطيع التمييز بين الصالح والطالح، فكثير من بنات الثانوي وما يعادلها، والجامعة ، وقعن في مزالق شباب ضائع، ومراهقين لا يقدرون عواقب الأمور، وما الزواج العرفي عنا ببعيد، وقد حدث لهن ما حدث من جراء ذلك، فقد تخلى عنها عشيقها وتركها تكابد الأهوال والأحزان ، فلم تجد سبيلاً سوى المتابعة والمسارعة في مجال الشهوات ، فإن المرأة إذا واقعت اللذة ، وعاينت ملامسة الرجال والاختلاط ، واللصوق والاحتكاك المباشر بهن، لم تكد تصبر في البعد عن ذلك، بل تسعى لتحصيل تلك الشهوة ، فإن عاطفتها ومشاعرها تفوق الرجل في هذا المقام.

ومنهن من أقدمت على الانتحار بسبب هذا العار، ومنهن من سقطن في مستنقع الإدمان، بل وعبادة الهوى والشيطان إن هؤلاء الآباء، وهاتيك الأمهات، هم سبب الفساد، ويجب أن نحاسبهم على هذا الإهمال الجسيم، فماذا ينتظر الآباء والأمهات بعد سماحهم لأبنائهم وبناتهم في التغيب المستمر والمتكرر عن منازلهم، حتى وقت متأخر من الليل، إن الجامعة التي يزعمون أنها تعلم وتربي، ما هي إلا معمل أو مصنع ينتج لنا أشكالاً وألوانًا من الفواحش والمنكرات، ولو كان الأمر عند زعمهم ـ في مجرد التعليم ـ فنحن نعلم أن حلقات الدراسة من محاضرات وغيرها ينتهي بها

اليوم الدراسي ـ وأقصاه ـ حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ، فكيف تدخل البنت إلى منزلها الساعة التاسعة أو العاشرة مساء، بل منهن لا يدخلن إلا عند طلوع الفجر، وقد تبيت عند إحدى صديقاتها أو زملائها، ثم تكذب وتقول : إنها باتت عند بعض أقاربها ولأن الأب مغفل، والأم متغافلة ومشغولة ، فيصدقونها، بل ليس أمامهم سوى هذا التصديق ، فهم واثقون في تربيتها.

* * *

١١ ـ لماذا تعترض البنت غالبًا ولا تسمع نصيحة أبيها ؟

إن مرحلة المراهقة عند البنت تشعرها بأنها أصبحت شخصًا آخر وأنها أضحت امرأة ناضجة، لها عقلها الخاص بها، وشخصيتها التي لابد وأن تحترم ، بل ويسمع لها، وآراؤها يجب أن توضع موضع الاحترام والتقدير، والشكوى المتكررة من الآباء، أن الأبناء لا يسمعون كلامهم كذلك، الأبناء يتضجرون من عدم استماع آبائهم وأمهاتهم لآرائهم وأفكارهم، ويعاملونهم كأنهم ما زالوا صغارًا ، وفي ذلك أذكر ما حدث بين صحابي من صحابة رسول الله ﷺ وابنه، فقد كان النبي ﷺ جالسًا بين أصحابه فسألهم سؤالاً ، فقال: « **إن من الشجر شجرة مثل المؤمن**» ، فوقع في قلوب وأذهان الحاضرين أنواع، فمنهم من قال: إنها شجر البوادي، ومنهم من وقع له غير ذلك، ولم يُجب أحد منهم إجابة صحيحة ، فلما انتهوا ، قال النبي ﷺ : «**إنها النخلة**» فقال عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان آنذاك صغيرًا وهو جالس بين صحابة رسول الله ﷺ مع أبيه، فقال لأبيه: يا أبت ، والله إني كنت أعلمها وما منعني أن أتكلم وأجيب إلا وجود أكابر صحابة رسول الله ﷺ فاستحييت أن أتكلم في حضرتهم ، فقال له عمر: والله لو قلتها لكان أحب إليَّ من كذا ، وكذا» فانظر أخي كيف يحاور هذا الصحابي الجليل ابنه وينمي فيه مواهبه وقدراته.

والأمر يزداد خطورة عند البنات ، فعلى الأم أن تدرك طبيعة الفترة التي تمر بها الفتاة، وتمرد البنت على أوامرها إنما هو مظهر من مظاهر تلك المرحلة الحرجة، فعليها أن تعلم أن البنت قد بلغت ، وانتهى بالنسبة لها عهد الطفولة، ولم تعد تستسيغ طريقة الأمر والنهي، والترهيب والتخويف، أو الضرب عند عدم الطاعة.

إن ممارسة هذه الأمور تأتي بنتائج عكسية غالبًا، ومن ذلك أيضًا تهديدها بفضح أمرها أمام زميلاتها، أو تهديدها بالأب، أو بالمُدرِّسة أو تذكيرها بأن أمها كانت تسمع كلام أمها وهي صغيرة ، كل ذلك يزيد الأمر ، ولا يخفف من عنادها وتمردها شيئًا.

وإن حدث استجابة منها فإنها وقتية، لا تلبث أن ترجع إلى ما كانت عليه.

إن على الأم أن تدرك في تلك المرحلة تغير الظـروف والأوضاع والزمان، وأن ما كان يصلح مـعها منذ زمن لا يصلح مع ابنتهـا الآن ، فقد اختلفت وسـائل العصر، واختلفت ثقـافاته، وطفل اليوم لم يعد كطفل الأمس، ومع تطـور وسائل الاتصال ، ووسائل التعليـم ووسائل الإعلام ، وأثر ذلك في شبابنا وفـتياتنا، بدرجة كـبيرة، إن كان ذلك بالسلب أو الإيجاب ، فقد تغير لذلك المفـاهيم والتصورات ، ومهما سعى الوالدان لصون أبنائهم من الخوض في هذه الوسائل، ومن أضرارها وسلبياتها، فلابد وأن يتأثروا ببعضها.

وزيادة على هاتيك المفاسد التي تنبعث من وراء تلك الوسـائل ، فكثير من القيم والأخـلاق والسلوك، ووسـائل التـعامل التـي تدرس في المدارس والجامـعـات، بل ويتلقونهـا بسهولة ويسـر وإقبال وسرور من وسـائل الإعلام ، في صور مـغلفة تحت شـعارات زائفـة، قد لا تكون كـلها ضـارة، لكن على الأقل هناك تغـييـر لابد من حـدوثه، ولن نستطيع إيـقاف هذا الزحف أو اعـتراض عـجلة الزمن، ولن نسـتطيع الرجـوع إلى الوراء إلا بصعـوبة شـديدة، ومن ذلك مثـلاً: ما انـتشـر من مفـاهيم وتصورات عن الحـرية والحوار ، وحقـوق البنت والطفل ، فهـذه الدعوات المستـمرة تحمل في طياتها أفكاراً شاذة، وكثيـراً من الشرور، قد لا تدرك لدى الكثير وقد تحمل في نفس الوقت بعض الصواب ، فـهي مفاهيم متلجلجة مـضطربة ، يمكن التواؤها، وتكييفها حسب ما يريد المرء.

وهذا يجرنا ويلزمنا بضـرورة تفهم تلك الأمور جـيداً ، والتعـامل معها تعـاملاً جريئًا ، مع تحذير الأبناء من الأضرار التي يمكن أن تنشأ بسببـها ، فالشباب والفتيات اليوم ليســوا كشباب وبنات الأمس، ولابد أن تضـع ذلك في الاعتبار عند مناقـشتهم والتعامل مـعهم، إن التغيـرات والتداعيات هي التي حـتمت علينا ذلك ، ولا بد من تغيير مفاهيم الحوار تبعًا لذلك، حتى لا يبتعد عنا الأبناء، ويذهبوا إلى من يماثلهم في الفكر ويوافقهم على ما يريدون.

* * *

١٢ ـ والعلاج يتمثل في عدة عناصر

١ ـ أهمية وضـرورة الحوار: ـ فالتمسك بالرأي ـ رأي الأبوين ـ في المعاملة مع البنت في مـرحلة المراهقـة، والشاب في ذات المرحلة ، والأخـذ على أيديهم بالقـوة والأمر والنهي لن يجدي ومناقـشة جميع الأمور أيضًـا لا يجدي، لكن الحل هو عدم إجبـارهم على بعض تلك الأمور ، والتي قـد لا تجد لها الفـتاة أو الشاب مـبرراً من وجهة نظره، فلابد إذن من المحاورة والإقناع بالصواب ، هذا كل ما نستطيعه.

ويجب أثناء ذلك أخذ رأيهم في بعض الأمور المنزلية، والتي تقوم بها العائلة، إن هذا يتيح الفرصـة ، ويشبع الرغبة في إبداء الرأي والشـعور بالنضج لدى الأبناء، مع ضرورة عدم تسفيه الرأي مهما كـان ضعيفًا أو تافهًا، بل لابد من توجيه هذا الفكر ، وينبغي عـلينا أن نعلم أن اعتراض الـفتاة أو الشـاب لن ينتهي هكذا بمجـرد الحوار أو المناقشة بسهولة ، وإن كان سيخفف وإلى حد كبير هذا التزمر.

إن الفتاة ترغب في أن تكون كبيرة شيئًا ما في سن المراهقة ، بل وتحاول أن تزيد من عمرها ، فـعلى الأبوين ألا يعترضا مشـاعر الفتاة ، ولا يشعرانهـا بأنها ما زالت صغيرة، لأن هذا يضايقها ، وعلى الأم أن تتكلم مـعها وتناديها بألقاب البنت الكبيرة الناضجة العاقلة ، فهي تحتاج إلى من يتفهمها ، فقد نضجت فعلاً جسديًا وعقليًا، إن تمرد الشباب والفتـيات في تلك المرحلة وإن كان يحمل بعض السلبيـات ، فهو يحمل بعض الإيجابيات التي تحتاج إلى من ينميها ويستوعبها ويرعاها.

إن وقوف الأبناء أمام الآباء لهو خطوة أولى لبناء شخـصية جديدة، إنه لهو القوة الدافعة نحو الأمـام، إن الشباب والفتيات أعـلام المستقبل وغاية الأمة، ولبنة التـغيير الأولى نحـو الأفضل والأصلح ، ذلك أنهم يمتلـكون القوة الدافـعة والطاقـة الكامنة الراكدة تختلف عن طاقتنـا البالية ، ونفوسنا الضعيفـة المنهزمة ، لكن لا يمكن بحال تجاهل خبرتنا وتجاربنا في الحـياة، لكنهم يملكون الإبداع والعطاء بلا حدود، انظر مثلاً إلى المبتكرين والمخترعين الذي أنتجوا وأخـرجوا لنا اختراعات باهرة خطيرة، وهم في

سن أقل من الثلاثين ، حتى رجال الأعمال، وأصحاب الثروات الباهظة ، فعلوا ذلك، ولم يتجاوزوا تلك السن، فيجب علينا ألا نستقل ، أو نقلل من إمكانات وطموحات الشباب والفتيات في مرحلة المراهقة.

* * *

الإعداد قبل البلوغ

أطفالنا هم مستقبلنا وامتدادنا وأملنا(١) .

وهذا الشعار حقيقة واقعية، وليس مجرد تصور أو خيال، ولذا فيجب أن يُصرف الهمُّ الأكبر إلى تهيئتهم ليكونوا مؤتمنين على مستقبل الأمة، وينبغي أن نتخلى عن نظرتنا إلى هؤلاء البراعم على أنهم لُعبة نتسلى بها، وننسى أن تربية الأطفال تبدأ مبكرًا جدًا ، وبالتالي فإن بلوغ هؤلاء، وإلى وقت قريب نحو البلوغ ، ينبغي أن نعلم أن هذا الوقت لا يمكن فيه تعليم وإرشاد ، إنما الأمر يكون قبل ذلك.

قال الأستاذ :محمد الصباغ ـ حفظه الله :

«سمعت من الأستاذ مالك رحمه الله أن رجلاً جاء يسترشده لتربية ابن له، أو بنت وُلدت حديثًا، فسأله: «كم عمرها؟» قال: «شهر» قال: «فاتك القطار» وقال: «كنت أظن في بادئ الأمر أني مبالغ ، ثم عندما نظرت ، وجدت أن ما قلته الحق، وذلك أن الولد يبكي فتعطيه أمه الثدي، فينطبع في نفسه أن الصراخ هو الوسيلة إلى الوصول إلى ما يريد، ويكبر على هذا فإذا ضربه اليهود بكى في مجلس الأمن. . . يظن أن البكاء والصراخ يوصله إلى حقه»(٢)

فينبغي على المصلحين أن يصرفوا جُل اهتماماتهم ، إلى توجيه الآباء إلى الأساليب العلمية الصحيحة لتربية أولادهم في شتى مراحل نموهم، كي ينشأوا أصحاء نفسيًا ، وعقليًا.

وليعلموا أن أول قلعة يتحصن بها الطفل هي الأسرة ، أقوى المؤسسات التربوية على الإطلاق .

قال الإمام أبو حامد الغزالي: «الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة

---

(١) مقتبس ومنقول من كتاب فضيلة الشيخ / محمد بن إسماعيل المقدم بعنوان: «علو الهمة» (١/ ٣٦٤ ـ ٣٧٠).

(٢) انظر : نظرات في الأسرة المسلمة «هامش ص (١٤٦ ـ ١٤٧).

نفيسة، فإن عُوِّد على الخير وعُلِّمَه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وإن عُوِّد الشر، وأُهمِلَ إهمال البهائم شقي وهلك...» وصيانته بأن يؤدِّبه ، ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق ...» قال الإمام ابن القيم رحمه الله : «وإذا اعتبرت الفساد إلى الأولاد، رأيت عامته من قبل الآباء».

وفي هذا أنزل الله تعالى آية من كتابه تتلى إلى يوم القيامة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ... ﴾ [التحريم: ٦].

قال أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه : «علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير، وأدِّبوهم».

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى سائل كلَّ راعٍ عما استرعاه : أحَفِظ ذلك أم ضيَّعه؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**»(١) .

وعن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : «**ما من عبد يسترعيه الله رعية ، فلم يحطها بنصحه، إلا لم يجد رائحة الجنة**»(٢)

قال، وقد أحسن القائل:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا ... على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى حِجي، ولكن ... يعوِّده التديُّن أقربوه

وقال آخر:

قد ينفع الأدبُ الأولاد في صغر ... وليس ينفع من بعده أدب
إن الغصون إذا عدلَّتها اعتدلت ... ولا يلين ولو ليَّنْتَه الخشب

وكما قيل: «التعليم في الصِغر كالنحت في الحجر» وقلتك «وكذلك التعليم في الكِبرَ كالنحت في الحجر» فالأول بمعنى أن تعليم الطفل وهو صغير يثبت ويرتكز في

---

(١) رواه ابن حبان ، وابن عدي في «الكامل» وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣ / ١١٣).

(٢) متفق عليه.

عقله وفكره ووجدانه ما ربيته عليه وعلمته إياه، كما أنك تنحت في الحجر، لا يكاد يذهب هذا النحت بمرور الزمن، ومهما طال الزمن، انظر إلى ما كتبه الفراعين في الصخور، وقد مر على ذلك آلاف السنين فكل ما كتبوه ونحتوه باق كما هو ، لم يحدث فيه تغيير أو تبديل أو محو كذلك تعليم طفلك وهو صغير على المبادئ والقيم، فكل ما تغرسه فيه، إنما يظل ثابتًا لا يزول ولا يحول مهما اشتدت به الخطوب، ومهما نزلت به الهموم ، فانظر ما تبذله في سبيل ذلك هل هذا النحت ، وهذا التعليم سهل ؟ لا والله ما هو بالسهل ، بل ذلك كله صعب، وشديد بالغ الصعوبة ، كمن ينحت فعلاً في صخر وفي حجر، فقد يستغرق النحت أيامًا وشهوراً، فوجه الشبه بالنسبة لتعليم الكبير، من هذه الناحية، ناحية الصعوبة الشديدة التي تجدها وأنت تعلم أو تربي الكبير، ويكون ذلك حال البلوغ، وبعد فترة المراهقة ، يصعب جداً تغيير ما شاب عليه هذا الولد بعدما ترعرع واستقام عوده، وتكونت شخصيته، وكمل عقله وذهنه، فكما قيل: «نقل جبل من مكانه ، بعد أن تفتته حجراً حجراً، أهون ألف مرة، من تغيير خُلُق أو طبْعٍ نشأ عليه إنسان» فنحن إذ نحث الآباء على تأديب وتعلِيم ومراعاة أبنائهم إننا فعلاً لا نمزح ولا نقول هزلاً، إنما الأمر جَدٌّ جداً، وخطير «و يتأكد الاهتمام بهذه التربية في زماننا الذي تتناوش فيها أطفالنا وأبناءنا فتن من كل صوب ، يدعو لها دعاة على أبواب جهنم، هم من جلدتنا ـ أي من المسلمين ـ ينتسبون إلينا ـ يتكلمون بألسنتنا ، همهم كله أن يخرجوا أجيالاً من الملاحدة الذين يرضون بالعلمانية ربًا ، ودينًا، ومنهاج حياة، فإن لم يتدارك الآباء أبناءهم بالتربية الإسلامية القويمة افترستهم العلمانية الملحدة ، وضمتهم إلى صفوفها ليحاربوا الله ورسوله والمؤمنين، كما هو مشاهد في البلدان التي سبقت إلى اعتناق هذا الدين وشعارهم «اللاديني» ومن رعى غنمًا في أرض مُسْبَعة[1] ونام عنها، تولى رعيها الأسدُ، وكيف يسترعي الذئب الغنم[2] .

لقد بلغ حرص سلفنا الكرام في متابعة هذه المهمة العظيمة ـ مهمة تربية الأبناء ـ حداً لا حدَّ له، حتى إن المنصور بعث إلى من في الحبس من بني أمية، يقول لهم:

---

(١) المسبعة: الأرض الكثيرة السباع.

(٢) علو الهمة (٣٦٦ ـ ٣٦٧).

«ما أشدُّ ما مَّر بكم في هذا المحبس؟ «قالوا: ما فقدنا من تربية أولادنا» أي خوفهم من ترك أبنائهم. انظر : فكيف بمن يترك أبناءه رغبة عنهم إلى الاهتمام بأمور تحصيل الأموال وفقط، فمهمته تنحصر في مجرد جمع المال، فهو كالعلاَّف الذي يعلف الأنعام من بقر وغنم، مع أن ممارسة هذا أشرف وأعظم ، فهذا يتاجر ويربي غنمًا، وسيبيعها ويربح في آخر العام، فقد انتفع في آخر الأمر ، أما هذا الذي يعلف ابنه وابنته دون تربية ، إنما يربي من سينقلب عليه ولن ينتفع به في آخر الأمر، وكما قيل: «سمِّن كلبك يأكلك» ليس إلا ، هذا إن كانت التربية منعدمة ـ أقصد التربية الإسلامية ـ فقط، لا الأوروبية ولا العلمانية، ولا المادية ، فهذا كله لا يحتاج إلى تربية .

قال عمرو بن العاص ـ رض الله عنه ـ في جماعة جلسوا إلى جانب الكعبة، فلما قضى طوافه جلس إليهم، وقد نحوا الفتيان عن مجلسهم، فقال: «لا تفعلوا ! أوسعوا لهم، وأدنوهم ،وألهموهم ،وعلموهم ، فإنهم اليوم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم آخرين، قد كنا صغار قومٍ أصبحنا اليوم كبار آخرين»[١] .

وقد علّق الإمام ابن مُفلح ـ رحمه الله ـ على هذه العبارة قائلاً: وهذا صحيح لا شك فيه ، والعلم في الصغر أثبت ، فينبغي الاعتناء بصغار الطلبة لا سيما الأذكياء المتيقظين الحريصين على أخذ العلم (والأدب) ، فلا ينبغي أن يجعل على ذلك صغرهم أو فقرهم أو ضعفهم مانعًا من مراعاتهم والاعتناء بهم[٢] .

وكان الإمام الشاسي محمد بن الحسين الفقيه الشافعي ـ رحمه الله ـ ينشد ويقول:

تعلم يا فتى والعود رطب وطينك لَيْنٌ والطبع قابل

* * *

(١) المرجع السابق (٣٦٧).

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٢٢٥).

١٣ ـ تدبر علامات النجابة ودلائل الذكاء في طفلك قبل البلوغ

إن علامات النجابة ، وصفات العبقرية تظهر في الصغر، حتى لا تكاد تشك في صيرورة صاحبها إلى الترقي في معالى الأمور، والتربع على قمة المجد، والارتقاء إلى أعلى المناصب.

ولقد اهتم المسلمون بالاجتهاد في الاكتشاف المبكر للنابغين ، ووضعوا لذلك معايير دقيقة ، وأولَوْا الصغار الذين توسَّموا فيهم مظاهر النجابة ومخايل النبل والذكاء ،رعاية خاصة ترقبًا لما تفرَّسوه[١] فيهم من الصدارة، قال الإمام الجليل ابن الجوزي:

«تأملت في الذين يختارهم الحق عز وجل لولايته والقرب منه، فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم، ممن رأيناه فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصًا كامل الصورة ، لا عيب في صورته، ولا نقص في خلقته ، فتراه حسن الوجه، معتدل القامة، سليمًا من آفة في بدنه، ثم يكون كاملاً في بطنه ، سخياً جواداً و عاقلاً، غير خِبّ ولا خادع، ولا حقود ولا حسود، ولا فيه عيب من عيوب الباطن».

فذاك الذي يربيه من صغره، فتراه في الطفولة معتزلاً عن الصبيان، كأنه في حال صباه شيخًا، ينبو عن الرذائل ، ويفرع من النقائص، ثم لا تزال شجرة همته تنمو حتى يرى ثمرها متهدِّلاً على أغصان الشباب، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل ، حافظ للزمان، مراعٍ للأوقات ساعٍ في طلب الفضائل ، خائف من النقائص.

ولو رأيت التوفيق والإلهام الرباني يحوطه ، لرأيت كيف يأخذ بيده إن عثر،

---

(١) الفِراسة : نوع من الذكاء ، أو معرفة كنه الأشياء على حقيقتها وإن كانت خفية بدلالات معينة قد تظهر على الوجه وأساريره، أو من جملة الأخلاق، أو العلامات الظاهرة أو الباطنة، يعرف من خلالها أشياء معينة ، كمعرفة ما إذا كان هذا الشخص الذي ينظر فيه قريب من الله أو بعيد عنه، أو معرفة الذكاء من الغباء ، ومعرفة الصدق من الكذب، وهذه الفراسة لصيقة ومنحصرة في المؤمنين ، فهي فضل نعمة من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده ، ينظرون بها فيعرفون ما لا يعرفه غيرهم من حقائق الأمور ، ومكنونات الأشياء ، وهي على تفصيل آخر ليس هذا موضعه.

ويمنعه من الخطأ إن همّ ويستخدمه في الفضائل ، ويستر عمله عنه حتى لا يراه منه»(١) .

وعن محمد بن الضحاك أن عبد الملك بن مروان قال لرأس جالوت أو لابن رأس جالوت: «ما عندكم من الفِراسة في الصبيان؟»

قال: «ما عندنا فيهم شيء، لأنهم يُخلقون خلقًا بعد خلق، غير أنا نرمقهم، فإن سمعنا منهم من يقول أثناء لعبه مع أقرانه: «من يكون معي؟» رأيناه ذا هِمَّة وحُنُوّ صَدَقَ فيه، ومن سمعناه يقول: «مع من أكون؟» كرهناها منه، فكان أول ما عُلم من ابن الزبير ـ أي ابن العوام ـ رضي الله عنه أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان ، وهو صبيٌّ ، فمر رجل فصاح عليهم، ففروا ، ومشى ابن الزبير القهقرى ، وقال: «يا صبيان اجعلوني أميركم، وشُدُّو بنا عليه» فهذا فعل الرجل الشجاع المقدام، صاحب همة عالية، ومستقبل باهر، فهذا طفل صغير ضعيف لا يريد أن يكون مقهورًا مذلولاً أو منكسرًا، وهو كذلك يأبى أن يكون تبعًا لأحد.

ومرَّ به عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو صبي يلعب مع الصبيان، فَفَرُّوا ووقف هو، ولم يفر، فقال له عمر ـ أمير المؤمنين : «ما لك لم تفر مع أصحابك؟» قال: «يا أمير المؤمنين ! لم أُجرِم فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقة، فأوسِّع لك».

فمثل هذه الشخصية القوية ، إذا كانت تلك إجابتها حال الصغر وحال الضعف البدني ، ماذا عساها أن تكون إذا كبرت وترعرت ، وأصقلت وتأدبت بأدب الإسلام ، لا بد أن تكون ذات شأن إذا روعيت من قبل من تولاها، أما إذا كبتت تلك المواهب، ومسخت هذه القدرات بطريقة أو بأخرى، أو أهملت وتركت اضمحلت وانتكست وتبدلت ، وتبلدت.

وهذا ابن عباس ـ الإمام الحبر ـ البحر ـ رضي الله عنه ـ وقد كان صغيرًا يدور يتعلم على أيد الصحابة الكبار ، فقال له ذات يوم أحد الناس: أترى يا بن عباس أن الناس يحتاجون إلى علمك ، وفيهم أكابر الصحابة وماذا تفعل في وسط هؤلاء ،

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص ٤٤١).

وكان يثبطه ، وترك صحبته وظل يطلب العلم، ويتعلم حتى بلغ علمًا كثيراً ، وذاع صيته بين الناس واحتاج الناس إلى علمه ، فكان يقول هذا الرجل: «إن هذا الغلام كان أفقه مني، فلقد احتاج الناس إليه وإلى علمه » والأمر كما قيل:

تعلم العلم فإنك لا تدري متى تحتاج إليه

ونظر الحطيئة الشاعر إلى ابن عباس يتكلم في مجلس عمر، فقال: من هذا الذي نزل عن الناس في سنه، وعلاهم في قوله ؟ فقال ابن مسعود: «لو بلغ أسناننا ما عَشَّره منا رجل» أي لو بلغ سِننا وكان في السن مثلنا ، ما بلغ أحد منا عُشر علمه»(١) وصدق، فهذا كلام رجل ذي فِراسة، فنظر ابن مسعود في ابن عباس فوجد علامات النجابة والذكاء والفطنة عليه، فقال في شأنه ما قال .

ونظر رجل إلى أبي دُلَف في مجلس المأمون ـ الخليفة ـ فقال: «إن همته ترمي به من وراء سنِّه » يعني أن حديثه وكلامه يفوق سِنَّه .

قال يحيى بن أيوب العابد : حدثنا أبو المثنى قال: سمعتُهم بمَرْو يقولون: «قد جاء الثوريُّ ، قد جاء الثوريُّ » فخرجت أنظر إليه ، فإذا هو غلام قد خرج شعر وجهه يعني ما زال حديث السن ـ سن المراهقة (٢) .

قال الذهبي: «كان يُنَوِّهُ بذِكره في صغره من أجل فرط ذكائه، وحفظه ، وحدَّث وهو شاب» يعني وقف وتصدَّر لتعليم الناس وهو شاب حديث السن.

وقال ابن مهدي: «رأي أبو إسحاق السبيِّعيُّ سفيان الثوري مُقبلاً، فقال: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢].

كذلك كان الإمام الكبير ـ البخاري ـ محمد بن إسماعيل ـ صاحب الكتاب العظيم ، كان ذكيًا سريع الحفظ ، فقد حفظ سبعين ألف حديث وهو صغير ، وكان ينظر إلى الكتاب فيحفظ ما فيه من نظرة واحدة قال محمد بن أبي حاتم: «كنت أختلف أنا والبخاري ـ إلى الكُتَّاب ـ فيسمع ، ولا يكتب ، حتى أتى على ذلك أيام،

---

(١) انظر عيون الأخبار (١/ ٢٢٩).

(٢) انظر علو الهمة (٣٧٠).

فكنا نقول له يكتب مثلنا، فلما بلغ ما كتبناه خمسة عشر ألف حديث طلب منا أن نسمعها منه، وقرأها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا على حفظه».

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يُلقِّن الصبي الآية، فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فإلى ما يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أملى ، فقال لي ذات يوم: «ما يحل لي أن آخذ منك شيئًا».

وهذا الإمام أحمد بن حنبل ـ حفظ القرآن في صباه وتعلم القراءة والكتابة ثم اتجه إلى الديوان يمرن على التحرير، ويقول عن نفسه: «كنت وأنا غلام صغير أختلف إلى الكُتاب، ثم اختلفتُ إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة، وكانت نشأته فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء : «وأنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم انظروا كيف ؟!» وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته.

قلت: سبحان الله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وكان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ليعلم الخليفة ما حدث فيها، وقد أرسلها مرة مع ابن أخيه أحمد بن حنبل فتورع عن ذلك ورمى بها في الماء تأثمًا من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضرر بالمسلمين ، وقد لفت هذا الورع ، وهذه النجابة كثيراً من أهل العلم، حتى قال الهيثم بن جميل: «إن عاش هذا الفتى ـ يعني أحمد بن حنبل ـ فسيكون حجة على أهل زمانه» قلت: وقد كان ، وصار إمام المسلمين في عصره ، ولُقب بإمام أهل السنة والجماعة حتى عصرنا الذي نحيا فيه.

ومن هؤلاء أيضا أحمد بن تيمية المُلقب بشيخ الإسلام، ومن شأنه الكثير والكثير، ولو ضربنا لذلك أمثلة ما استطعنا أن نحصيه، وربما أنطق الله سبحانه الغلام الصغير الحدث بما يعجز عنه فطاحل الأدباء ، فيصير ذلك علامة كاشفة لما أودع الله بين جنبيه من الحكمة والأدب ، وما متّعه به من ذكاء.

وقد رُوي عن معمر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢]

أن الصبيان قالوا ليحيى: «اذهب بنا نلعب» فقال: «ما لهذا خُلِقْتُ»[١] أي ما خُلقت للعب.

وقال الشيخ يسين بن يوسف المُراكشي: «رأيت الشيخ[٢] ـ وهو ابن عشر سنين ـ نبوي [٣] ـ والصبيان يُكرهونه على اللعب، معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، قال: «فوقع في قلبي محبته، وجعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع، والشراء عن القرآن، قال: «فأتيت الذي يقرئه القرآن أوصيه به، وقلت له: «هذا الصبي يُرجى أن يكون أعلم أهل زمانه، وأزهدهم، وينتفع به الناس» فقال لي: أمنجم أنت؟» فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك» فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام»[٤].

قلت: وصار الإمام يحيى النووي ـ رحمه الله ـ إمام عصره زهدًا وورعًا وعلمًا وعملاً.

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن «للقرطبي» (١١ / ٨٧).

(٢) يعني الإمام أبا زكريا يحيى بن شرف النووي ـ رحمه الله.

(٣) نوى: من أرض حوران، من أعمال دمشق الشام ـ معجم البلدان (٣/ ٥٣٠).

(٤) طبقات الشافعية (٨/ ٣٩٦ ـ ٩٣٩٧.

علامات الذكاء تظهر على وجوه الصبيان ونماذج مضيئة من حياة السلف

وتقدم إياس بن معاوية(١) وهو صبي إلى قاضي دمشق ومعه شيخ ، فقال: «أصلح الله القاضي ، هذا الشيخ ظلمني ، واعتدى عليَّ ، وأخذ مالي» فقال القاضي: «ارفق به ، ولا تستقبل الشيخ بهذا الكلام»، فقال إياس : «أصلح الله القاضي ، إن الحق أكبر مني ومنك» فقال: اسكت» قال: «إن سكتُّ فمن يقوم بحجتي؟» قال: «تكلم فوالله ما تتكلم بخير» فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، فرفع صاحبُ الخبر هذا الخبر إلى الخليفة ، فعزل القاضي وولى إياس مكانه».

هكذا يفعل الذكاء وحسن الأدب بصاحبه.

وأُدخل على الرشيد ـ أمير المؤمنين ـ صبي له أربع سنين ، فقال له: ما تُحب أن أهب لك ؟ قال: «حُسنْ رأيك».

انظر كيف لو دخل أحد صبياننا اليوم، بل شبابنا ، وسُئل هذا السؤال فكيف يحبب ، فقد يقول أذكاهم وأعقلهم وأفهمهم: «أريد مالاً كثيراً وأريد سيارة، وأريد ملبسًا ومأكلاً ومشربًا، بل قد يطلب حلوى».

وحكى ابن الجوزي أن المُعتصم (٢) ركب إلى خاقان يعوده ، والفتحُ صبي يومئذ: فقال له المعتصم : «أيُّما أحسنُ : دار أمير المؤمنين أو دار أبيك؟» قال: «إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي، فدارُ أبي أحسن»، فأراه فصًا في يده، يعني كخاتم وغيره ـ فقال: « هل رأيت يا فتحُ أحسنَ من هذا الفصِّ؟» قال: «نعم، اليدُ التي هو فيها: فانظر إلى فرط ذكائه، ومجاملته لأمير المؤمنين ، وهو صبي ما دون العاشرة.

ومرَّ «الحارث المحاسبي» ، وهو صبي يومًا بصبيان ، وهم يلعبون على رجل

---

(١) قاضي البصرة، العلامة أبو واثلة ، كان يُضرب به المثل في الذكاء والدهاء والسؤدد والعقل، وله عجائب وحكايات رائعة انظر التهذيب للإمام المِزِّيّ ، وقد جمع أخباره فيه.

(٢) المعتصم بالله ـ الخليفة ـ أحد الأمراء.

تمّار[(١)] ، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم ، وخرج صاحب الدار ومعه تمرات ، فقال للحارث : «كُل هذه التمرات» ، قال الحارث : «ما خبرك فيها؟»، قال: إني بعتُ الساعة تمراً من رجل فسقطت من تمره ، فقال: «أتعرفه؟» قال: «نعم»، فالتفت الحارث إلى الصبيان يلعبون، وقال: «أهذا الشيخ مسلم؟» قالوا: نعم. فمرَّ وتركه، فتبعه التمَّار حتى قبض عليه وأمسكه، وقال له: «والله ما تنفلت من يدي حتى تقول لي ما في نفسك مني » فقال: «يا شيخ إن كنت مسلمًا، فاطلب صاحب التمرات حتى تتخلص من تبعته كما تطلب الماء إذا كنت عطشان شديد العطش، يا شيخ ! تطعم أولاد المسلمين السُّحتِ وأنت مسلم؟ فقال الشيخ: «والله ما اتجرت للدنيا بعد ذلك أبدًا!»؟ فانظر كيف هدى الله هذا الشيخ الكبير بكلمة هذا الصبي الصغير.

وقال صاحب «أنباء نجباء الأدباء».

بلغني أن أبا سليمان داود بن نصير الطائي ـ رحمه الله ـ لما بلغ من العمر خمس سنين أسلمه أبوه إلى المؤدب فابتدأه بتلقين القرآن ، وكان لقِنًا فلما تعلَّم سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾[الإنسان] وحفظها ، رأته أمه يوم الجمعة مقبلاً على حائط ، وهو يفكر ويشير بيده ، فخافت عليه، وقالت له: «قم يا داود فاخرج والعب مع الصبيان» ، فلم يجبها ، فضمته إلى صدرها ، ودعت بالويل، فقال: ما لك يا أمَّاه ؟» قالت: أبِكَ بأسٌ؟ قال: لا. قالت «أين ذهنك؟» كلمتك فلم تسمع قال: «مع عباد الله» قالت : وأين هم؟ قال : في الجنة، قالت: «وما يصنعون ؟» قال: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ الآية [الإنسان: ١٣] ومرَّ في السورة يقرؤها، وهو شاخص ببصره، كأنه ينظر إليهم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان] ثم قال: «يا أماه! ما كان سعيهم؟ » فلم تَدْرِ ما تجيبُهُ به، فقال: «قومي عني حتى أتنزه عندهم ساعة» فقامت ، وأرسلت إلى والده، فجاء

(١) التمار: الذي يبيع التمر.

فأخبرته الخبر، فقال له: «يا داود كان سعيهم مشكوراً أنهم قالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله » فكان داود بعد ذلك لا يدع أن يقول: «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله».

وهناك أمثلة كثيرة جداً في هذا المقام. ولكني اقتصرت في إيراد بعضها حتى لا ينسى الإنسان ما قرأ، ويظل محتفظًا بما اعتبر.

* * *

المواهب والاستعدادات الفطرية عند الأولاد

هناك خصائص ذاتية متميزة، واستعدادات فطرية، ومواهب ذاتية عند الطفل النابغ، وهذا الطفل ليس مجرد طفل ماهر في أداء معين، ولا مجرد طفل ممتاز في أداء بعض المهارات فحسب، بل لديه خصائص شخصية واجتماعية وبدنية طيبة تفوق ما عند أقرانه.

وإذا كبر كان ذا همة عالية فائقة، ومن أهم خصائصه: سلامة البدن، وقوة الذاكرة، وسرعة التعلم، والتفوق في التحصيل الدراسي، وحب الاستطلاع، والدافعية للإنجاز، والثقة بالنفس، والاستقلالية، والمثابرة، والتفوق في القيمة النظرية، وفي الميول العلمية والابتكارية والإبداعية، والنضوج الاجتماعي، وغير ذلك[١].

ومن هؤلاء النابغين في عصرنا مثلاً الطفل «سيد جلال الأفغاني» الذي التحق بجامعة البترول بطهران، وعمره عشر سنوات في العام الجامعي (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) وقد حصل على الثانوية ـ العامة وعمره ثمان سنوات، وتعلم الأوردية والإنكليزية والروسية وعمره تسع سنوات.

ولتعلم أخي أن المرء لا يولد عالمًا، وإنما تربيه جماعة، وتصنعه بيئة، وتتعهده بالرعاية والتعليم، حتى يصل إلى ناصية العلم ونهايته.

* * *

---

(١) علو الهمة (٣٨١).

إعداد الجيل الصاعد

والبيت يهتم بالنشء النابغة، والأمة التي تهتم بالنابغين، تصنع بهم المستقبل المشرق، لأنهم ـ وحدهم ـ الذين يصلحون أمرها، ويسهمون في ازدهارها، والأمة التي تهمل رعاية نابغيها ومتوفقيها أمة فاشلة، وسفوف تشقى بهم، لا سيما إذا تولى أمورها جهلة قاصرون يوردونها المهالك أو مرضى نفسيين معقدون يسومونها سوء العذاب، أو سفلة أصحاب نفوس دنيئة وهمم خسيسة يبيعونها لأعدائها بثمن زهيد.

ومع كون المواهب استعدادات فطرية، فإنها تؤدي إلى النبوغ إلا إذا توافرت لأصحابها الظروف البيئية الملائمة، والتربية السليمة الضرورية لتنميتها.

والأسرة ـ بهذه المثابة دورها رشيد وبناء ـ وبخاصة الوالدين كليهما أو من يقوم مقامهما ـ فهم أهم عناصر البيئة تأثيراً في إظهار النبوغ ، وزراعة الهمم العالية في نفوس الأطفال منذ الصغر، وهذا ما يفسر بطبيعة الحال ـ اتصال سلسلة النابغين من أبناء أسر معينة، لاجتماع الاستعدادات الفطرية ـ الموروثة، والقدرات الابتكارية ، مع وجود البيئة المساعدة التي تكشف هذه المواهب مبكراً ، وتنميها، وتوجهها إلى الطريق الأمثل.

فقد تكون الأم ذكية محبة للعلم والعلماء، أو أب مشهود له بالعلم، كان سببًا في تيسير السبيل إلى العلم، ومجالسة العلماء، مما كان له أثر بالغ في تنمية نبوغ الأبناء فلذة الأكباد، وقرة العيون.

ومن الأمثلة على ذلك : الزبير بن العوَّام ـ فارس رسول الله ﷺ الذي عدل به عمر بن الخطاب عنه ألفًا من الرجال ، كان قد نشأ في كنف أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وأخت أسد الله حمزة، وهؤلاء العظماء أبناؤه: عبد الله، والمنذر، وعروة ، كلهم ثمرات أمهم العظيمة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم.

وأيضًا هذا علي بن أبي طالب ، يتربى في حجر أمه فاطمة بنت أسد ، وخديجة

بنت خويلد ـ رضي الله عنهما ـ وهذا عبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب تعاهدته أمه أسماء بنت عميس ـ رضي الله عنها .

وهذا أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ قد ورث عن أمه هند همة تجاوز الثريا، وهي التي قالت: وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها : «إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه»، فقالت: «ثكلته أمه إذًا إن لم يَسُدْ إلا قومه» يعني أرادت أنه سيسود سائر الأقوام.

وعندما نُعي إليها ولدها يزيد بن أبي سفيان قال لها بعض المعزين : إنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف منه ، فقالت: « أو مثل معاوية يكون خَلَفًا من أحد؟ والله لو جمعت العرب من أقطارها ، ثم رُمي به فيها، لخرج من أيها شاء».

وقد كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ إذا نوزع بالفخر بالمقدرة ، وأُسمع المباهاة بالرأي، انتسب إلى أمه ، فصدع أسماع خصمه بقوله: «أنا ابن هند» أي أنا الذي ربتني أمي «هند» ويتشرف بذلك لكونها أُمّا عظيمة قد استطاعت أن تصنع منه رجلاً.

لكن هناك أمر ينبغي التنبيه عليه وهو أن البيئة المترفة قد تكون عائقًا كبيراً عن المُضي في طريق المجد، ومع ذلك يترفع عليها صاحب الهمة العظيمة، ويجعلها في خدمة إنجاز مطالبه الجسيمة،كما كان الإمام ابن حزم الأندلسي ـ رحمه الله ـ الذي نشأ في بيئة مترفة،لكنه ترك كل ذلك وانصرف عن مطامع الحياة،وراح يطلب العلم.

وربما نشأ كبير الهمة في بيئةٍ معدمة قاسية، تكون كفيلة بإطفاء همته، والقضاء على نبوغه ، فييسر الله له من الأسباب ما ينمي مواهبه، ويتكفل أمره ، فقد نشأ المتنبي (شاعر العرب) في أسرة فقيرة غير متعلمة لكن الله قد قيض له فرصة التعليم المجاني، وقد شجعه أصحاب المكتبات على قراءة الكتب دون مقابل.

وبغير التربية الواعية، والنضوج الاجتماعي المبكر ، الذي ينمي الملكات ويغرس الثقة بالنفس ويحررها من التبعية والتواكل والطفولية، والانطوائية ، لا نستطيع أن نفسر ظاهرة ارتحال العلماء في سن الصبا والشباب المبكر في أقطار الدنيا طلباً للعلم ، وقد فارقوا الأهل والأوطان وكابدوا المخاطر والمشاق دون ملل أو كلل.

ومن أعجب النماذج في زراعة الهمة الكبيرة في نفوس الأطفال والنشء : ما

يُقال أن الشيخ أقشمس [(١)] الدين الذي تولى تربية السلطان محمد الفاتح العثماني ـ رحمه الله ـ كان يأخذ بيده، ويمر به على الساحل ويشير إلى أسوار القسطنطينية التي تلوح من بعد شاهقة حصينة، ثم يقول له: أترى إلى هذه المدينة التي تلوح في الأفق إنها القسطنطينية ، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن رجلاً من أمته سيفتحها بجيشه ، ويضمها إلى أمة الإسلام فقال ﷺ فيما رُوي عنه: «**لتفتحن القسطنطينية ، ولَنِعْم الأميرُ أميرُها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[(٢)] وما زال يكرر هذه الإشارة على مسمع الأمير الصبي (المنتظر) إلى أن نمت شجرة الهمة في نفسه العبقرية ، وترعرعت في قلبه، فعقد العزم على أن يجتهد ليكون هو ذلك الفاتح الذي بشَّر به الصادق المصدوق ﷺ ، وقد كان، فقد كان والده السلطان مراد الثاني ـ منذ صغره يستصحبه معه بين حين وآخر إلى بعض المعارك ـ ليعتاد مشاهدة الحرب والطعان ومناظر الجنود في تحركاتهم، واستعداداتهم، وليتعلم قيادة الجيش وفنون القتال عملاً حتى إذا ما ولي السلطنة، وخاض غمار المعارك خاضها عن دراية وخبرة وعندما جاء اليوم الموعود شرع السلطان محمد الفاتح في مفاوضة الإمبراطور قسطنطين ليسلمه القسطنطينية ، فلما بلغه رفض الإمبراطور تسليم المدينة، قال ـ رحمه الله ـ «حسناً سيكون لي عن قريب في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر».

وحاصر السلطان محمد الفاتح ـ أنعم به من فاتح ـ القسطنطينية واحداً وخمسين يومًا ـ كان خلالها المعارك القاسية ، والمدوية ـ وبعدها سقطت المدينة الحصينة التي استعصت على الفاتحين قبله، على يد بطل شاب، له من العمر ثلاثة وعشرون عامًا وحقق هذا الفاتح البطل للمسلمين أملاً غاليًا ظل يراودهم ثمانية قرون، حاولوا تحقيقه مراراً فلم يفلحوا وكأنَّ القدر كان قد ادَّخر هذا الشرف لهذا البطل المغوار.

* * *

---

(١) علو الهمة (٣٩٢).

(٢) السلسلة الضعيفة رقم (٨٨٢).

١٥ ـ «أهمية التشجيع وأثره في نفوس الشباب»

لقد قام المسلمون في شتى العصور بتشجيع الموهوبين ، بكافة صور التشجيع، فكانوا ينفقون الأموال الجزيلة لنفقة النابغين من طلاب العلم، لأن الإسلام قد رفع شأن التشجيع إلى حدٍّ كبير، وقد جعله فريضة على غير القادر على إقامة فروض الكفايات مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم، والولاية والإمامة، ومعنى قول العلماء «فرض كفاية» أنها واجب على الكفاية ، فإن قام بها البعض سقط الوجوب عن بقية الناس، وإن لم يقم به أحد على الإطلاق أثموا جميعًا، القادر منهم: لأنه قصَّر ، وغير القادر ، لأنه قصَّر فيما يستطيع أن يفعله ، وهو البحث عن القادر وحمْله على العمل، وحثّه وتشجيعه ، وإعانته على القيام به، بل إجباره على ذلك[١] .

وما يزال المعلمون في المدارس والمساجد والمعاهد إذا لمسوا في طفل النجابة وسرعة التعلم، احتضنوه ، وساعدوه على طلب العلم، بل وزودوه من أموالهم الخاصة، وكان من هؤلاء المشجعين دائمًا الخلفاء والأمراء من قبل وقد كان من العلماء ابن شهاب ـ رحمه الله ـ يشجع الأولاد الصغار، ويقول لهم: لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم ، فإن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا نزل به الأمر الصعب، دعا الفتيان فاستشارهم حتى يتبع عقولهم وآراءهم[٢] .

وكان من الخلفاء «هارون الرشيد» ـ رحمه الله ـ يغدق العطايا والصلات لطلبة العلم والعلماء، حتى قال الإمام ابن المبارك: «فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ، ولا حافظًا للمحرمات في أيام من أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه ، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن

---

(١) انظر «الموافقات» للشاطبي (١/ ١١٤).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٨٥).

ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في فنون العلم والفقه، ويروي الحديث ويجمع الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عَشَرَةَ سنة » [(١)] .

ومن الأمثلة على اهتمام الدولة، أنه في القرن السادس عشر قامت محاولة ناجحة في عهد الخلافة العثمانية لتجميع النابغين من جميع الأنصار والقرى وتوفير الرعاية التي جعلت كل نابغة يُعطى ما عنده من فن وعلم ، مما ساعد على ازدهار الدولة العثمانية حضاريًا وعسكريًا ـ حتى باتت تهدد بغزو أوروبا.

ومن الجدير بالذكر أن رعاية النابغين أُهملت في أوروبا وأمريكا حتى بداية القرن العشرين، بسبب سوء فهم هذه المجتمعات للنابغين ، ولعل سبب ذلك كان كتاب Man op genius أي : «الرجل العبقرى»لمؤلفه «Lambroso» وكتاب « Insanily» ofGeniues « أي: «جنون العبقرية» لمؤلفه «Nisbel» وقد نشر الكتابان في لندن ونيويورك في أواخر القرن التاسع عشر، وأثبتا فيهما العلاقة الوثيقة بين العبقرية والجنون، وقدّما البراهين على أن النابغين مجانين حقًا.

ثم بدأت فكرة الغربيين عن النابغين تتحسن بعد أن نشر «Terman» كتابه «The gcifled children grownof » أي: الطفل النابغة يرشد » سنة ١٩٤٧ وقدم فيه البراهين على أن الأطفال الأذكياء أصحاء نفسيًا، وجسميًا، واجتماعيًا مما ساعد على تكوين «رأي عام» مع النابغين[(٢)] .

وحتى منتصف القرن العشرين كان الأمريكيون يعتبرون رعاية النابغين ترفًا تربويًا، ولم يبذلوا جهودًا جادة في الكشف عنهم إلا بعد أن أطلق الروس أول مركبة فضائية ١٩٥٧ ، وشعروا بالخطر من تفوق الروس عليهم، فاتجهوا إلى رعاية النابغين، واعتبروها «مسألة حياة أو موت» واجتهد علماء التربية وعلم النفس والاجتماع، وعقدوا المؤتمرات والندوات لتخطيط وتنظيم رعاية فئات النابغين وتشجيعها على إظهار نبوغها في جميع المجالات ، وأنشأت كل ولاية العديد من المعاهد والفصول

---

(١) علو الهمة (٣٩٧).

(٢) انظر كتاب : «رعاية النابغين في الإسلام وعلم النفس» (١٧١ ـ ١٧٢).

المتخصصة في رعاية النابغين في جميع المجالات ، حتى بلغ عدد المعاهد حوالي ٧٠٠ معهداً تشرف عليها حوالي ٣٠٠ جامعة في أمريكا ، كما أسهمت المؤسسات التجارية والصناعية والعلمية في تمويل برامج الكشف عن النابغين ورعايتهم » ا. هـ.

قال الأستاذ على الطنطاوي: «قرأت مرة أن مجلة إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نموُّ العلوم وازدهار الآداب ، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: «إنه التشجيع» وقالت: «إنها في تلك السن، بعد تلك الشهرة والمكانة ، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الأمام، وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير» ا. هـ .

ثم ذكر الشيخ أثر التثبيط في خنق المواهب، وحرمان الأمة من عبقرية أصحابها وإبداعهم ، وضرب مثالاً لذلك فقال: «إن الشيخ محمد أمين «ابن عابدين» لما نشأ، وأنس المثبطون[1] منه الميل إلى العلم، وعرفوا فيه الذكاء المتوقِّد، والعقل الراجح، خافوا منه ، فذهبوا يقنعون أباه ـ وكان أبوه امرأ تاجراً ـ ليسلك به سبيل التجارة ، ويتنكب به طريق العلم، وجعلوا يكلِّمونه، ويرسلون إليه الرسل ، ويكتبون إليه الكتب، ويستعينون عليه بأصحابه ، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً، فثبَّت الوالد، فكان من هذا الوالد المبارك، ابن عابدين ـ صاحب «الحاشية» أوسع كتاب في فروع الفقه الحنبلي[2] .

بل أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلاَّمة «محب بن كرد علي» عن العلم، فبعثوا إليه بشقيقين من آل فلان، بشقيقين قد ماتا فلستُ أسميهما، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالبًا، فما زالا بأبيه ـ ولم يكن أبوه من أهل العلم ينصحانه أن يقطعه عن العلم، ويعلمه مهنة يتكسب منها، فما في العلم نفع، ولا منه فائدة، ويُلِّحان عليه ويلازمانه ، حتى ضجر فصرفهما، فكان من ولده هذا، الأستاذ «كرد

(١) هؤلاء المثبطون كانوا ـ كما قال الشيخ الطنطاوي ـ أبناء عائلات معينة، احتكرت الوظائف العلمية، فكانوا يخشون تحولها عنهم إلى غيرهم، والله أعلم بسرائر العباد.

(٢) علو الهمة (٣٩٩).

علي» أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سورية الأسبق، ومفخرتها، والذي من مصنفاته : خطط الشام، وغرائب الغرب، والقديم والحديث ، والمحاضرات وغابر الأندلس وحاضرها ، والإدارة الإسلامية ، والإسلام والحضارة الغربية، والمقتبس ، وأيضًا: «المجمع العلمي العربي بدمشق الشام» وله «الشعراء والكتّاب من الشباب».

قال الشيخ محمد بن إسماعيل المقدم ـ حفظه الله: ولعل من الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين وككرد علي .

وكان أول من سنّ سنة التشجيع في بلدنا العلامة مربي الجيل الشيخ طاهر الجزائري ـ رحمه الله ـ الفيلسوف المؤرِّخ الجدلي، الذي من آثاره المدارس الابتدائية النظامية في الشام، والمكتبة الظاهرية بدمشق، والأستاذ «محمد كرد علي بك» وخالي الأستاذ «محب الدين الخطيب » ومما كتب في ذمّ التثبيط:

«وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم ، في هذا الوقت الذي يتنبه فيه الغافل، وكان الأجدر أن يشفقوا على أنفسهم ، ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع، ولم يُر أحد من المثبطين قديمًا أو حديثًا أتى بأمر مهم، فينبغي للجرائد الكبيرة أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها، ليخلص منها من لم تستحكم فيه، ويتنبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم»[1] ا. هـ.

وكان هذا الرجل في حياته يُشجِّع كل أحد، ولا يثني أحدًا عن غاية صالحة أو مفيدة ، حتى لقد قال أحد المقربين منه أنه قال له: إذا جاءك من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام، فلا تقل له: إن هذا غير ممكن ، فتقلَّ من عزيمته ، وتكسر همته، ولكن أقرئه وحبِّب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به وواظب على قراءته ، نبغ فيه.

قال الشيخ محمد بن إسماعيل ـ حفظه الله ـ «ثم إن التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أكلها، ورُبَّ ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شُجِّع وأُخذ بيده عالمًا من أكابر العلماء، أو أديبًا من أعاظم

---

(١) علو الهمة (٤٠١).

الأدباء.

وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجـد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة، إلى منصب الإفتاء ، وكرسي التدريس تحت القبّة .

ومن هؤلاء الشيخ «محمد إسماعيل» الحائك كان عاميًا ، لكنه نشأ محبًا للعلم، والعلماء، فكان يحـضر مجالسهم، وكـان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول، واستمر على ذلك دهراً حـتى أتقن علوم الآلة، وصار واحد زمانه في الفقه والأصـول ، وهو عاكف على مهنتـه لا يتركها، وصـار الناس يأتونه إلى محله يسألونه عن مشكلات المسائل.

* * *

«خُذْ من شبابِكَ قَبْلَ هَرَمِكَ»

قال النبي ﷺ : «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**» فالشباب هو زمن العمل والجد والسعي، وهو وقت التحصيل لأنه فترة قوة بين ضعفين ، ضعف الطفولة ، وضعف الشيخوخة، فهو إذن وقت القوة على العطاء والقدرة على البذل والتضحية ، والعمل الدائم، وهو ضيف سريع الرحيل إن لم يغتنمه العاقل تقطعت نفسه بعدُ حسرات.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه: ما آتي الله عز وجل عبدًا علمًا إلا في الشباب، والخير كله في الشباب، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ⑬ ﴾ [الكهف].

قالت حفصة بنت سيرين: « يا معشر الشباب اعملوا، فإن العمل في الشباب» وهل كان صحابة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه إلا شبابًا .

فهذا أسامة بن زيد رضي الله عنه ـ أمَّره رسول الله ﷺ على الجيش وكان عمره ثماني عشرة سنة ، وهذا عتَّاب بن أسيد استعمله النبي ﷺ على مكة لما سار إلى حنين وعمره نيف وعشرون سنة، وهناك نماذج كثيرة للشباب أبلوا أحسن البلاء، في حمل رسالة الإسلام، ونشره بين العالمين.

قدم وفد على عمر بن عبد العزيز من العراق ، فنظر إلى شاب منهم يتحوَّز يريد الكلام، فقال: عمر: «كبِّروا كبروا» يعني يريد أن يتقدم الكبير فيتكلم ، فقال الفتى: يا أمير المؤمنين إن الأمر ليس بالسن، ولو كان كذلك كان في المسلمين من هو أسن منك» قال: صدقت ، فتكلم».

وحكى المسعودي في «شرح المقامات» أن المهدي (الخليفة) لما دخل البصرة رأى

إياس بن معاوية ، وهو صبي، وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة وإياس يقدمهم ، فقال المهدي: : «أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث (الصغير) ثم إن المهدي التفت إليه وقال: كم سِنُّك يا فتى؟ » فقال: سني ـ أطال الله بقاء الأمير : ـ سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله ﷺ جيشًا فيهم أبو بكر وعمر فقال له: «تقدم بارك الله فيك» .

وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن يحيى بن أكثم ولّي قضاء البصرة وسِنُّه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغروه ، فقالوا: «كم سن القاضي؟ فقال: «أنا أكبر من عتَّاب ابن أسِيد، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به رسول الله ﷺ قاضيًا على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سويد الذي وجه به عمر بن الخطاب قاضيًا على البصرة، فجعل جوابه احتجاجًا ودليلاً له.

قال أبو اليقظان: (١) ولّى الحجّاج (٢) محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي قتال الأكراد بفارس ، فأباد منهم، ثم ولاّه السِّند فافتتح السند والهند، وقاد الجيوش ، وهو ابن سبع عشرة سنة، فقال فيه الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى ... لمحمد بن قاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبعَ عشرةَ حِجةً ... يا قرب ذلك سُوددًا من مولدِ

وولي عُبيد الله بن زياد خُراسان وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وليها معاوية ـ رضي الله عنه ـ وولي معاذ اليمن وهو ابن أقل من ثلاثين سنة.

وحمل أبو مسلم أمر الدولة والدعوة وهو ابن إحدى وعشرين سنة .

وحمل الناسُ العلم عن إبراهيم النخعي وهو ابن ثماني عشرة سنة.

ومات سيبويه إمام النحو، وحجة العرب، وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة.

---

(١) علو الهمة (٤٠٨).

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي.

إن الشبـاب هم القوة الـضاربة ، والعناصـر الفعالـة في الأمة، وهم عـمودها، وجهازها العضلي، وروحها الحية، وطليعتها الوثابة ، ولا يتصور نجاح دعوة أو حركة لا تقوم على حماس الشباب وقوته. ا. هـ[١] .

* * *

(١) علو الهمة (٤١٠).



الفصل الثاني

الشباب وجنون الحب (الحب الزائف)

الفصل الثاني

الشباب وجنون الحب (الحب الزائف)

الحب هو الغذاء لتدفق الحياة النفسية والاجتماعية للأفراد والمجتمعات والشعوب، وهو الطاقة الدافعة كسلوك حضاري راق يتشربه الفرد الإنساني منذ ميلاده وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ويتفق علماء النفس على أن الحب حاجة نفسية اجتماعية يتحتم إشباعها للفرد الإنساني أثناء إشباع حاجاته الأولية الأساسية، الأكل والشرب والهواء والنوم، فالرضيع يتعلم الحب والعطف أثناء عملية الرضاعة، وبالتدريج تقترن ابتسامة الأم الحنونة بحالة السرور التي يشعر بها الطفل أثناء الرضاعة، والدفء العاطفي في الأسرة ككل يتولد ويتشربه سائر أفراد الأسرة عندما يجتمعون على مائدة الطعام ثلاث مرات يوميًا، ولكن عدم الاجتماع بهذا الشكل أثر على سلوكيات الترابط الأسري والود والعطف والحنين.

* * *

طاقة الحب وأثرها

فعندما يتشرب الطفل الحب أثناء إشباع حاجياته الأساسية ينمو الحب معه في جميع جوانب حياته، فعلى الرغم من أن الحب يكون كنتيجة للرعاية والاهتمام والدفء العاطفي من الوالدين والأسرة ، فإنه : أي الحب إذا تكون أصبحت له طاقة نفسية إنسانية هائلة تدفع الإنسان إلى الصبر والتحمل والمثابرة ، فالحب بعد أن يشربه الفرد يصبح هو المسيطر على تصرفاته ، وليس معنى ذلك أن الإنسان يكون عاطفيًا بدون عقل ، لكن مشاعر الحب تجعله يسلك سلوكًا راقيًا متحضرًا في كل تصرفاته لماذا؟ لأنه شرب وعاش معنى الحب في الأسرة أو في المدرسة أو الجامعة التي توفر له هذا الحب، فالحب الحقيقي هو الذي يبقى ويعيش، هو الذي يعلمنا التسامح وليس التفريط في الحقوق، هو الذي يدفع الإنسان للعمل والتفكير في المستقبل، فهو الطاقة الدافعة الحضارية للتنمية .

* * *

كيف يتولد الحب ؟

لابد وأن نعلم أطفالنا منذ الصغر «الحب» عن طريق رؤية نماذج سلوكية رائعة في العطاء واحترام الآخر بدون التفرقة ، فعندما يتعامل الطفل في مراحل العمر المختلفة مع سلوكيات الحب من خلال التطبيع الاجتماعي السوي يتعلم الطفل الابتسامة، والتعاون ، يتعلم احترام الأصدقاء والخوف عليهم، فالأخ الأكبر الذي عاش حالة الحب مع الوالدين يمارس تلك الرعاية لأخيه الأصغر، وللأسف فقد انتشر في الآونة الأخيرة سوء فهم شديد لمعنى الحب، حيث أصبحت تحمل معنى العلاقة العاطفية الخاصة بين الولد والبنت «أو العلاقة الجنسية في بعض الأحيان، ومن ثم فإن تلك الكلمة تثير الرعب والفزع لدى الآباء والأمهات، لأنها ارتبطت في أذهانهم بعلاقة خاصة بين الأولاد والبنات، وجعلت الأسرة تمنع أي نوع من التعارف الأخلاقي بين الجنسين حتى في مراحل الطفولة المبكرة، ومراحل التعليم المختلفة.

وإن كان كثير من تلك الأسر عندها حق في منع هذه العلاقات مبكراً، إلا أنه يجب ممارسة هذه العاطفة أسريًا، حتى لا يفقد الولد أو تفقد البنت هذا العطف والحنان، ولا يتبلد لديهم هذا الشعور.

* * *

المناخ المناسب لتطوير معاني الحب والوفاء

فالحب سلوك يشير إلى عواطف إيجابية وملموسة تدفع الإنسان إلى العطاء والوفاء، وليس الحب مجرد وصفة سحرية أو دواء يتعاطاه المريض، وليس كما يعتقد البعض الجاهلون الذين يذهبون إلى الدجالين حتى يقدموا لهم أعمالاً تجعله محبوبًا أو يجعلها محبوبة حتى يتم الزواج، لكن الحب سلوك عاطفي يحتاج إلى توفير مناخ البهجة والسرور، وعدم الأنانية ، كنماذج فعلية قوية يتعلم منها الطفل منذ نعومة أظفاره الحب، ولذلك القسوة بين الزوجين تفسر مناخ اكتساب الحب، والمشاجرات العائلية والمعتقدات الخاطئة والسلبية في التربية: كالضرب والألفاظ النابية، والشك المريض والصراعات بين الزوجين يؤدي لا شك إلى التفرقة وعدم توفر مناخ مناسب لتربية الحب، وعندما نقوم بتحليل تلك السلوكيات التي تشجع على اكتساب وتعميق الحب، نجد أن البداية الأساسية تبدأ من الزوجين فالتوافق بينهما والابتسامات المتبادلة، ومشاعر الاهتمام بالآخر واحترام الرأي والتفاهم وتوزيع المسئوليات وتنظيم مواعيد تناول الطعام في مناخ أسري هو الذي يصنع سلوكيات الحب الحقيقي الذي ينمو مع الإنسان يومًا بعد يوم ليرى في كل التصرفات والعلاقات، ومن ثم تنتشر ثقافة الاستمتاع بمظاهر الحياة وتوفير مقتضيات السعادة بدلاً من ثقافة الهم والاكتئاب.

* * *

«الحب المباح» والحب تحت العشرين

قال الدكتور:مصطفى الشكعة/ عضو مجمع البحوث الإسلامية: إن الحب مُباح بشرط أن يكون من أجل الزواج، أما الحب بلا غاية فـهذا عدوان أدبي على الأعراض من عائلة مكـونة من أب وأم وأبناء، فالحب حدث ضـروري ولكنه آثم محـرم ما لم يكن الهدف منه الزواج[١] ا.هـ.

وفي الأثر: «لم يُر للمتحابين مـثل النّكاح» أي لا يوجد أفضل ولا أحسن من أن يجتمع رجل وامرأة على حب من أجل الزواج.

لكن بعض الفتـيات وبعض الشبـاب يعتقـدون خلاف ذلك ، فقد قـالت إحدى الفـتيـات (١٩ سنة) : إن الحب حق إنسـاني لكن يجب ألا يسـمح به لسن ما قـبل الجامعة، لأن هذه المرحلة لا يعرف فيها الفرد مصيـره، وتتغير اختياراته فيما بعد وفق الكلية التي يلتحق بها.

وتقول: إنها تعرضت لتجربة كهذه وكانت تستطيع أن تتجنبها لو أنها فاتحت أحدًا من أهلها وأقنعـها بالتروي، ولكـنها تقول : لو أن أحـدًا من أهلها علم شيـئًا لقلب الدنيا على رأسها ، ولتمسكت هي باختيار خاطئ نتيجة إحساسها بالقهر أو بالجهل.

وتسـاءلت بثينة قـائلة: لماذا يعـاملنا أهلنا على أننا كـبار وحين نخطئ يعـاملوننا كأطفال قاصـرين، وأن لهم حق تسيير حيـاتنا دون إقناع أو منطق؟! كان لابد أن نقرأ هذه التجارب في هذه السن من خلال منظور علمي (تقـصد تجارب الحب بين الشباب والفتيات).

فقالت الدكتـورة/ سامية خضر ـ أستـاذ علم الاجتماع بكلية التربيـة جامعة عين شمس: إن الفـترة من ١٢ ـ ١٤ سنة العـواطف تنشأ مـسايرة لتغـيرات فسـيولوجـية محاولة للتـعرف على الذات وعلى الآخر ، فالبنت تحاول أن تثـبت أنها بنت، لأنها نضجت جسمانيًا، والولد يحاول أن يثبت أنه رجل، لأنه نضج جسمانيًا ولكن كليهما

---

(١) تحت العشرين ـ العدد (١) يوليو ٢٠٠٤ .

لا ينضج نفسيًا بما يلائم هذا التغير فهي عـواطف غير ناضجة بالمرة إنها همسات تدور داخل البيوت ، ودنيا يحياها شبابنا، ينظر لها الكبار بسخرية أحيانًا وباستهجان أحيانًا أخرى أو باشمئزاز في كثير من الأحـيان، ولكن كيف ينظر للتجربة من هو بداخلها؟ كيف يرى شباب تحت العشرين الحب؟ كيف يعـيشون تفاصيله؟ وإلى أين يعتقدون أن ينتهي بهم؟ .

بالطبع لكل منهم حكاية، ولكل منهم قصة عاشها أو هو يحياها ، وما زال لكن السؤال؟ : من ينصح ويوجه التوجيه السليم المثمر بلا خسائر؟ .

* * *

الحب... ذلك العذاب اللذيذ

فجميع قصص الحب «قصص حزينة... تنتهي غالبًا بالألم والفراق، بل وبالموت كمدًا، في أكثر الأحيان،! وأجمل قصص الحب، وأكثرها روعة ورومانسية هي أشدها حزنًا وألمًا... من بداية الطريق الطويل من العشاق والمحبين المساكين أمثال: قيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية، إلى جميل بثينة وقيس بن ذريح بن سنة عاشق لبنى، وعروة بن حزام ومحبوبته عفراء، وكُثَيِّر عزة، وتوبة بن حِمَيْر ومحبوبته ليلى الأخيلية، ثم العمة وريا، ومالك وظريفة، وعبد الرحمن بن أبي عمار الناسك المشهور «بالقَسّ» وسلامة الزرقاء، وذو الرمة ومية، والعباس بن الأحنف وفوز، وغيرهم من العشاق الذين ذكرتهم السير الشعبية... أمثال عبلة وعنترة، كلها بدأت في لذة ونعيم ثم انتهت بالمرار والفراق... هكذا الحب كما يصفه الشاعر: بيرم التونسي «حلو وآخره علقم» نعم... إنه الحب ذلك الداء الدوي والمرض العُضال، الذي حير العقول وعجز عن علاجه الأطباء النحارير.

قال كثيِّر عزة وهو يتوجع ويتألم ودموعه تسيل على خديه:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكاء ولا موجعات القلب حتى تولت

يعني حتى هجرته عزة.. حقًا إنه مشوار مؤلم، لكنه لذيذ في بعض الأحيان ... نار تحرق ولكنها تشعل في القلوب أشياء أحلى من العسل عند اللقاء وعند الفراق... وهل هناك حلاوة بلا نار؟ هكذا... وإلى قيس بن ذريح (المجنون) يصف حاله قائلاً:

وكل مصيبات الزمان وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب!

إلى هذه الدرجة ؟ لكن أين تهرب أيها المحب من ألم الحب؟ إنه القدر الذي لا فرار منه، قال العباس بن الأحنف: «كيف احتراس من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي!! عدوك إذن هو قلبك الأسير الموجع... وهو حبيبك الذي تضم عليه أضلاعك.

هكذا صرخ قيس بن ذريح من لوعة الجوى وألم العشق قائلاً:

لقد عذبتني يا حب لبنى فقع يعني فلتقع إما بموت أو حياة!

وكأنه يريد أن يقول: احصل وخلصنا ما دمت حاصلاً حاصلاً!!

فالحب إذن نهايته الألم والموت.

يقول عروة بن حزام: وما عجبي موت المحبين في الهوى.. ولكن بقاء العاشقين عجيب.

إنهم يتألمون ويتوجعون لفراق الأحباب، ويتألمون ويتوجعون لقربهم تمامًا كما قال جميل بثينة.

إذا ما دنت زدت اشتياقًا وإن نأت جزعت لنأي الدار منها وللبعد!

لقد حيرونا والله هؤلاء المحبون، فلا القرب نافع ولا البعد شافع، أكان أجدر بهم وبنا أن تتم قصص حبهم الحزينة المؤلمة والخالدة لما فيها من ألم وعذاب...؟ أكان أجدر بنا وبهم أن تنتهي قصص حبهم بالزواج، وأن ينجح مثلا مسعى نوفل بن مساحق في خطبة ليلى العامرية إلى قيس؟ لو حدث هذا لكان قيس أتعس، ولأدرك أن الجنون كان به أرحم من حمل العيال، والوقوف في طابور الجمعية، وغسيل الأطباق في المطابخ، والذهاب بالست إلى الطبيب... إلخ.

ولماذا هذا الخيال، وقد حدث بالفعل أن تزوج قيس بن ذريح على أصح الروايات من محبوبته لبنى فماذا كانت النتيجة؟! تدخلت الحماة (والدته) أم قيس وسعت حتى طلقت لبنى منه بدعوى أنها لا تنجب أين مثاليات الحب وتضحياته إذن أمام هذا الامتحان والاختبار، وبدأت رحلة البحث عن عروس جديدة للمتعوس قيس... تمامًا كما في الأفلام العربية الساذجة، ولكن... وآه من «لو» و«لكن» إن الحكاية تمامًا كما يصفها مالك صاحب ظريفة حين يقول:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقم فاعتلف تبنًا فأنت حمار

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تحب ولم تجد فأنت وعيرٌ في الفلاة سواءُ

كتاب وتعليق
«مصارع العُشاق»

هو كتاب من التراث العربي القديم،[١] موضوعه «الحب» وحالاته: «العشق» وحيله، وحكاياته، ومصائر المحبين، وما ينتهي إليه استغراقهم في عاطفة الحب، وما يوصلهم إليه نفسيًا أو عقليًا، بدنيًا أو اجتماعيًا ، مؤلف الكتاب شيخ فقيه محدث ، شاعر، بغدادي، اسمه: جعفر السراج، ولقبه القارئ، وتدل مادة الكتاب على شغفه بالرواية (النقل الشفاهي عن الآخرين) والقراءة ، لقد عاش السرّاج في القرن الخامس الهجري (٤١٧ ـ ٥٠٠ هـ ـ ١٠٢٦ ـ ١١٠٦م) وهذا يعني أنه عاش زمن عنفوان الثقافة العربية التي بلغت ذروة المجد في القرن الرابع، وبدأت في طريق الجمود بعد القرن الخامس، وموضوع الكتاب كما هو معلوم ـ أخبار وقصص ونوادر وأشعار العُشاق، والعشق ـ في اللغة ـ والعرف القديم : «المبالغة في الحب، هو الهيام والشغف ، هو التركيز العاطفي الذي يستولي على العقل ، سواء بإرادة الإنسان أم من غير إرادته ، وبذلك فقد يكون محرمًا إذا أفضى إلى علاقة محرمة أو غير محرمة، وبهذا المعنى نجد هذا الشيخ الفقيه يؤلف في موضوع الحب دون شعور بالحرج، أو أن هذا الموضوع خفيف أو بعيد عن الجدية، أو لا يناسب عالم الدين، وهنا أضيف بعض الإيضاح:

١ ـ أن كتاب «مصارع العشاق» في اهتمامه بعاطفة الحب تصويرًا، وتشريحًا، وتوثيقًا ـ لم يكن أول كتاب في موضوعه، فقد سبقته دراسات أخرى، من أهمها مؤلفات الجاحظ وكتاب «الزهرة» لمؤلفه محمد بن داود الظاهري، وكتاب «طوق الحمامة» لمؤلفه الإمام ابن حزم الأندلسي، وهما فقيهان رائدان من رواد الفكر الإسلامي، وهذا يبين لنا مدى الفهم الواسع والثاقب إلى ظاهرة الحب .

---

(١) تحت العشرين ـ العدد (١) يوليو ٢٠٠٤ .

٢ ـ أن هذه الكتب تراثية عن الحب يمكن أن نقرأها الآن بقصد إما التسلية أو الترفيه أو الاعتبار مع القراءة من أجل الارتقاء بأساليب اللغة والإلمام بنماذج من الشعر الغزلي الرقيق، ويمكن أن نجد من أنواع السلوك الإنساني، وأسرار النفس، وغرائب التصور ، وأن نجد فيها من الاعتقادات الاجتماعية ، والمشكلات العاطفية (وأخلاق الجماعات) والفئات ما لا نجده إلا في دراسات علم النفس ، وبعبارة أدق: إن كتب الحب في التراث العربي وثائق نفيسة ودراسات اجتماعية فيها درجة من الصدق غالية، لأنها قصص واقعية كتبت في شكل حكايات وأخبار، وليس من أجل البرهنة على سلامة مصطلح أو افتراض علمي[١] .

فكتاب مصارع العُشاق شأن المؤلفات القديمة عامة ـ يروي حكاياته وأخباره حسب تداعي المعاني، فالحكاية تستدعي ما يشبهها، وأحيانًا أخرى ما يناقضها وهكذا تستمر مادة الكتاب، ولكي نسهل تفهم مضمون الكتاب للقارئ المعاصر: يجب أن نضع عنوانًا لكل حكاية أو خبر ، ونرتب فهرسًا مفصلاً يمكن الاستعانة به للاستدلال على الجزئية التي يرغب القارئ في الاطلاع عليها، وقد نشر الكتاب بهذه الطريقة أكثر من مرة، وهناك طريقة أخرى أشار إليها الدكتور / محمد حسن عبد الله وهي حذف سلسلة الرواة الذين رووا هذه الحكايات، فليس هناك أهمية حقيقية لمعرفة أسماء الذين تناقلوا هذه الحكايات عبر العصور ، وكذلك حذف النوادر والطرائف القليلة الأهمية العابرة، التي قد تفقد الكتاب الشكل الفني الجمالي بحيث تعد «قصة » أو ما يماثلها، وبعد تخليص الكتاب من هذين الأمرين، يعاد توزيع القصص والأخبار حسب الموضوعات مثل: الشعراء.. العشاق والخلفاء.. العشاق، المعقول من قصص العشاق، وغير المعقول من قصص العُشاق، ومجانين العُشاق.

وتحت هذه العناوين يوجد عشرات الأخبار والحكايات والنوادر ، ما يذكره التاريخ عن بعض الشعراء والخلفاء، والمجّان، وعقلاء المجانين، والزهاد والزاهدات، فمن الخلفاء مثلاً سليمان بن عبد الملك صاحب الغيرة الشديدة إلى درجة قمع الآخر، وإهلاكه أحيانًا، والمتوكل، والوليد بن يزيد في خلاعته ومجونه، ومن الشعراء عُشاق

---

(١) تحت العشرين ص ٧ العدد (١) يوليو ٢٠٠٤ .

عذريون (المشهورون بداء العشق) ومن أصحاب العشق الإلهي (الصوفية) رابعة العدوية، وإبراهيم بن أدهم، وأبو العباس بن عطاء، وغيرهم ممن تعبد بالجمال، فإذا وصلنا إلى عقلاء المجانين، أولئك الذين ذهب العشق بعقولهم وأجسادهم حتى نحلت ، ستجد الشعر والحكمة من أفواههم ، بل قد تجد العشق غير المعقول، أو ما يتجاوز قوانين العقل، كيف تعشق مثلاً الطيور فيموت الذكر قهرًا إذا ذبحت الأنثى، أو العكس، بل كيف تعشق الأشجار والنخيل ، فتشيص نخلة (لا ينضج ثمرها) حين تقطع النخلة (الذكر) الذي كان يلقحها، . . . إن هذا السيل من القصص والأخبار يقنعنا ـ من خلال التفكر والتأمل ـ كيف أن التراث العربي نظر إلى عاطفة الحب على أنها ظاهرة ـ يجب الوقوف عندها ـ والنظر إليها نظرة تأمل وإدراك ـ وعناية وتمعن. فالخليفة قد يعشق، وقد يبكي من عشقه، والصوفي المتجرد عن الدنيا يغيب عن الوعي إذا نظر إلى وجه جميل ، والشجرة تعشق . . وهذا يعني أن العشق قد يكون ظاهرة كونية، وليست وقفًا على الإنسان وحده، فضلاً عن أن تكون وقفًا على طبقة أو نوع ، أو مستوى فكري.

* * *

النظر إلى الحب من الناحية الشرعية

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داءٍ دواء، وسهل طُرق الوصال إلى ذلك الدواء شرعًا وقدراً، فمن أراد التداوي بما شرعه الله له، واستعان عليه بالقدر، وأتى الأمر من بابه صادف الشفاء، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعًا ـ وإن امتحنه به قدراً ـ فقد أخطأ طريق المداواة ، وكان كالمتداوي من داءٍ بداء أعظم منه، وقد تقدم حديث طاووس عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ : «**لم يُر للمتحابين مثل النكاح**»(١) وفي رواية «مثل التزويج» وقد اتفق رأيُ العقلاء من الأطباء وغيرهم في مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء (داء الحب) في التقاء الروحين، والتصاق البدنين ، فدواء المحبين في كمال الوِصال الذي أباحه الله ربُّ العالمين(٢) .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها، وقال: «**إن المرأة تُقبلُ في صُورة شيطان فإذا رأى أحدُكُمُ امرأة فأعجبتُه فليأت أهلَهُ ، فإنَّ ذلك يردُّ ما في نفسه**»(٣) وفيَّ رواية: «**فإنه يجد عندها ما عندها**» وعن أَبي مسلم الخولاني ـ رحمه الله ـ أنه كان يقول: «يا معشر خولان (قبيلته) زوّجوا شبابكم وإماءكم (أي فتياتكم) فإن الغُلْمةَ أمرٌ عارمٌ (شديد لا يُطاق) فأعِدُّوا عُدَّتها واعلموا أنه ليس لِمُنعِظٍ(٤) إذن ، يريد أنه إذا استأذن عليه فلا إذن له.

وذكر العُتبي (٥) أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحُسين خرجا يريدان موضعًا لهما، فنزلنا تحت سَرْحَةٍ(٦) ، فأخذ أحدُهما ورقة فكتب عليها:(٧)

---

(١) رواه ابن ماجه في النكاح (١٨٤٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وإسناده صحيح، وصححه الألباني في الجامع الصغير .

(٢) روضة المحبين لابن القيم ـ رحمه الله ـ (٢٥٤).

(٣) رواه مسلم في النكاح (١٤٠٣).

(٤) المنعظ: المشتهي للجماع، وقد انتصب ذكره، والإنعاظ: شدة الشَّبَقُ والشهوة.

(٥) العتبى : علاَّمة إخباري.

(٦) سرحة: شجرة عظيمة طويلة، والجمع سرح.

(٧) البيت من بحر الخفيف كما في روضة المحبين (٢٥٥) .

خبِّرينا خُصِصْتِ بالغيث يا سَرْ ... حُ بصدقٍ والصدقُ فيه شفاءُ

وكتب الآخر:

هل يموتُ المحب من ألم الحُـ ... ـب ويشفى من الحبيب اللِّقاءُ؟

ثم مضيا ، فلما رجعا وجدا مكتوبًا تحت ذلك:

إن جهلاً سؤالُك السَّرْحَ عَمَّا ... ليس يومًا عليك فيه خَفَاءُ

ليس للعاشقِ المحبِّ من الحب ... سوى لذَّةِ اللِّقاءِ شفاءُ

وقال عبد الله بن صالح: كان الليث بن سعد إذا أراد الجماع خلا في منزلٍ في داره ودعا بثوبٍ ، كان يلبسه إذ ذاك ، وكان إذا خلا في ذلك المنزل عُلم أنه يريد أمرًا، وكان إذا غِشي أهله قال: اللهم شُدّ لي أصلْه ،وارفع لي صدره، وسهِّل علي مدخله ومخرجه، وارزقني لذته وهب لي ذرية صالحة تقاتل في سبيلك ، قال: وكان جَهْوَرِيًا ، فكان يُسمع ذلك منه - رضي الله عنه[1] .

وقال علي بن عاصم: حدثنا خالدُ الحَذَّاء قال: لما خلقَ الله آدم وخلق حواء قال له: يا آدمُ اسكُن إلى زوجِكَ ، فقالت له حوَّاء: يا آدمُ ما أطيب هذا! زدنا منه، يعني دوام الوصال.

وفي الصحيح أن سليمان بن داود - عليهما السلام - طاف في ليلةٍ واحدة على تسعين امرأة، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يطوفُ على نسائه في الليلة الواحدة، وهُنْ تسع نسوة، وربما كان يطوفُ عليهن بغُسلٍ واحد، وربما كان يغتسلُ عند كل واحدةٍ منهنَّ.

وقال أبو عبد الله - يعني: أحمد بن حنبل - رحمه الله : ليس العُزُوبة من أمر الإسلام في شيء ، فالنبي ﷺ تزوج أربع عشرة ومات عن تسع نسوة، ولو تزوَّج بُشر بن الحارث لتمَّ أمره[2] ، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزوٌ ولا حجٌّ ، ولا كذا ولا كذا، وقد كان النبي ﷺ يُصبح وما عندهم شيء، ومات عن تسع ، وكان

---

(١) روضة المحبين (٢٥٦).

(٢) بشر بن الحارث : العابد الزاهد.

يختارُ النكاح ويحثُّ عليه، ونهى عن التَّبتُّل، فمن رغب عن سُنة النبيِّ ﷺ فهو على غير الحق ويعقوب عليه السلام، في حزنه على يوسف تزوج ووُلد له، والنبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إليَّ النِّساء».

إذن فالعلاقة وطيدة بين الحب والزواج، فالزواج الناجح القائم على الحب والتفاهم والتعاطف بين الزوجين.

وقد حض النبي ﷺ على استعمال هذا الدواء ، ورغَّب فيه، وعلّق عليه الأجر، وجعله صدقة لفاعله فقال: «وفي بضعِ (١) أحدكمُ صدقةٌ»(٢) وقد ترجم الإمام النسائي على هذا فقال: «باب الترغيب في المباضعة» أي الجماع، ثم ذكر الحديث، ففي هذا الوصال كمال اللذة، وكمال الإحسان إلى الحبيبة وحصولَ الأجر، وثواب الصدقة، وفرح النفس بالأنس بالمحبوب، وذهاب الأفكار الرديئة عنها، مع حصول خِفَّة الروح ، وذهاب كثافتها مع خفة الجسم، واعتدال المزاج، وجلبُ الصحة(٣) .

ودفع المواد الرديئة، فإن صادف ذلك وجهًا حسنًا، وخُلُقًا دَمثًا (٤) ، وعِشقًا وافرًا، ورغبةً تامةً واحتسابًا للثواب والأجر، فذلك اللذة التي لا يُعادلُها شيء، ولا سيما إذا وافقتْ كمالها ، فإنها لا تكمُل حتى يأخذ كلُّ جزءٍ من البدن بقسْطه من اللذة، فتلتذ العين بالنظر إلى المحبوب، والأذنُ بسماع كلامه، والأنفُ بشم رائحته، والفمُ بتقبيله، واليد بلمسه، وتعتكف كلُّ جارحةٍ على ما تطلبُه من لذتها، وتقابله من المحبوب، فإن فقد من ذلك شيءٌ لم تزل النفسُ متطلعة إليه، متقاضية له، فلا تسكُن كل السكون، ولذلك تُسمَّى المرأة سكنًا لسكون النفس إليها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم ...﴾ الآية [الروم: ٢١] وتمام النعمة في ذلك فرحة المحب برضاء ربه تعالى بذلك ، واحتساب هذه اللذة عنده، ورجاء تثقيل ميزانه، ولذلك كان أحب شيءٍ إلى الشيطان أن يُفرق بين الرجل وبين حبيبه ، ليتوصل إلى تعويض

---

(١) البضع : قضاء الشهوة.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة (١٠٠٦).

(٣) روضة المحبين (٢٥٩).

(٤) دَمثًا: ليِّنًا سهلاً.

كل منهما عن صاحبه بالحرام، لما في السنن «أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[١] .

فهذا الوصال لما كان أحبَّ شيءٍ إلى الله تعالى ورسوله ﷺ كان أبغض شيءٍ إلى عدو الله ، فهو يسعى إلى التفريق بين المتحابين في الله المحبَّة التي يُحبُّها الله، ويُؤلِّف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها وأكثر العُشاق من جنده وعسكره، ويرتقي بهم الحال حتى يصير هو من جندهم وعسكرهم ، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويُؤلِّف بينهم عليها كما قيل:

عجبتُ من إبليسَ في نخوتهِ وقبح ما أظهَرَ من سيرته

تاه على آدمَ في سجدة وصارَ قوَّاداً لذريته[٢]

وقد أرشد النبيُّ ﷺ الشباب الذين هم مَظنَّة العشق إلى أنفع أوديتهم، ففي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**يا مَعْشَرَ الشبابَ من استطاع منكُم الباءَةَ فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر، وأحْصَنُ للفَرْجِ**»[٣] وفي لفظ آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالباءَةَ**» وذكر الحديث، وبين اللفظين فرقٌ ، كما هو واضح فإن الأول يقتضي أمرَ العَزَبَ بالتزويج، والثاني يقتضي أمرَ المتزوِّج بالباءة، والباءة : اسمٌ من أسماء الوطء (أي الجماع) وقوله: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوج**» فقد فسر العلماء الباءة هنا بالوطء ، وبعضهم فسرها بمعنى تكاليف الزواج ونفقاته ، ولا ينافي التفسير الأول، إذ المعنى على هذا مؤن الباءة ثم قال: «**ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاءٌ**» فأرشدهم ﷺ إلى الدواء الشافي الذي وضع لهذا الأمر، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل.

وهو الصوم، فإنه يكسر الشهوة، ويُضيق على النفس مجرى الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته ، فكمية الغذاء، وكيفيته يزيدان في توليدها، والصوم يُضيق عليها ذلك، فيصير بمنزلة وِجَاء الفحْل[٤] ، وقلَّ من أدمَنَ الصوم إلا

---

(١) رواه أبو داود في الطلاق (٢١٧٨) وابن ماجه في الطلاق (٢٠١٨).

(٢) البيتان للحسن بن هانئ (أبو نواس الشاعر) وهما من بحر السريع كما في روضة المحبين (٢٦١).

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١٤٠٠) وأبو داود في النكاح (٢٠٤٦) والترمذي في النكاح (١٠٨١) والنسائي في الصوم (٤/ ١٦٩).

(٤) وِجَاءُ الفحل: هو دقُّ عروق خصيته بين حجرين حتى تنفضخا، فيكون شبيهًا بالخصاء.

وماتـت شهوته أو ضـعفت جـداً، والصوم المشـروع يُعَدِّلهـا ، واعتـدالُها حـسنةٌ بين سيئـتـين، ووسطٌ بين طرفين مذمومين ، وهمـا العُنَّة، والغُلْمة[١] الشديدة المُفرطة، وكلاهما خارجٌ عن الاعتدال ، وكلا طرفي قَصْدِ الأمور ذميمُ[٢] .

وخير الأمور أوساطها، والأخلاق الفاضلة كلُّها وسطٌ بين طرفي إفراط وتفريط، وكـذلك الدين المسـتقـيم وسطٌ بين انحـرافين ، وكـذلك السُّنَّة وسطٌ بين بدعـتين، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القولُ الوسط بين الطرفين المتباعدين وليس هذا موضع للتفصيل ، فإنا لم نقصد هنا له[٣] .

* * *

(١) العُنَّة: عدم القدرة على إتيان النساء، والغُلْمة غلبة الشـهوة وسيطرتها ، حتى لا يكاد يصبر الإنسان عن عدم إتيان النساء.

(٢) هذا عجز بيت، وصدره: ولاتكُ فيها مُفرطًا أو مُفَرِّطًا.

(٣) روضة المحبين (٢٦٢).

فصل «فيمن ذمَّ الحب وتَبرَّم به، ومن دعا إليه»

قال تعالى: وهو يخبر عن دعاء الفئة المؤمنة: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ الآية [البقرة:٢٨٦] فقد أثنى عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه ألاَّ يحمِّلَهم ما لا طاقة لهم به، وقد فُسِّرَ بذلك بالعشِق وليس المراد اقتصار الأمر به، بل المراد أن العِشق مما لا طاقة للعبد به.

وقال مكحول: هو شدة الغُلمة[١]، وقال النبي ﷺ: **«لا ينبغي للمرء أن يُذل نفسه»**[٢] قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرَّض من البلاء ما لا يطيق، كأن يضع نفسه موضعًا لا يمكن له مقاومة عواقبه، وهذا مطابق تمامًا لحال العاشق، فإنه لا شك أذلُّ الناس لمن يعشق، والحبُّ مبناهُ على الذُلِّ وتمام الانكسار والخضوع للمحبوب.

كما قيل:

اخضع وَذِلّ لمن تحبُّ فليس في ... شرع الهوى أنفٌ يُشال ويُعقدُ[٣]

وقال آخر:

مساكين أهلُ العشق حتى قبورهم ... عليها ترابُ الذلّ بين المقابر

وقال آخر:

لا تُنكروا ذِلَّة العُشّاق إنَّهم ... مستعبدون برقِّ الحُبِّ راضونا

قالوا: وإذا اقتحم العبد بحر العشق، ولعبت به أمواجُه فهو إلى الهلاك صائر، وإلى التلف أدنى منه إلى السلامة، كما ذكر الإمام ابن القيم عن الخرائطي أنه قال: «كان بالمدينة جاريةٌ ظريفة فهويت (عشقت) رجلاً من قريش، وكان لا يفارقها ولا تُفارقه فملَّهَا وزاد حبُّها له، فسقمت، وجعل مولاها لا يعبأ بشكواها، ولا يرقُّ لها،

---

(١) الغلمة: اشتداد الشهوة للجماع.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٠٥) بلفظ: «لا ينبغي لمسلم ...» ورواه الترمذي في الفتن (٢٢٥٤) وابن ماجه في الفتن (٤٠١٦).

(٣) شال: شوْلاً وشوَلانًا: ارتفع وعلا.

حتى هامت على وجهها، ومزّقت ثيابها، وأفضت إلى أمرٍ عظيم، فلما رأى ما صارت إليه عالجها، فلم ينفع فيها العلاج، وكانت تدور بالسكك بالليل كالمجنونة، وتقول:

الحبُّ أوّلُ ما يكونُ لجاجةً ... تأتي به وتسوقه الأقدارُ(١)
حتى إذا اقتحم الفتى لُججَ الهوى ... جاءت أمورٌ لا تُطاقُ كبارُ(٢)
من ذا يُطيق كما نطيقُ من الهوى ... غَلَبَ العزاءُ وباحتِ الأسرارُ(٣)

قالوا: وكم من عاشقٍ أتلف في من يعشق ماله وعرضه ونفسه، وضيَّع أهله ومصالح دينه ودنياه.

قالوا:

الحبُّ أوَّلُهُ شيءٌ يهيمُ به ... قلبُ المحب فيُلقى الموت كاللَّعبِ
يكون مبدؤه من نظرةٍ عَرَضَتْ ... ومَزْحَةٍ أشعلتْ في القلب كاللّهبِ
كالنار مبدؤها من قَدحةٍ فإذا ... تضرَّمت أحرقتْ مُستجمع الحَطَبِ(٤)

قالوا: وكيف يُمدح الحبُ، وهو أمر يمنع القرار والاستقرار، ويسلُب المنام، ويذهب العقل ويقلق النفس، ويُحدث الجنون، بل هو نفسه جنون كما قال أحد الحكماء: الجنون فنون، والعشق فنّ من فنونه، قال بعض العُشاق:

قالوا جُننت بمن تهوى فقلتُ لهم ... العشقُ أعظمُ مِمَّا بالمجانين
العشقُ لا يستفيقُ الدَّهر صاحبُه ... وإنما يُصرَعُ المجنونُ في الحين(٥)

قالوا: والعشق هو الداء الدويّ (الشديد المهلك) الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقطع معه ارتياح، بل هو بحرٌ من ركبه غرق، فإنه لا ساحل له، ولا نجاة منه، كما

---

(١) اللجاجة: التمادي في العناد.
(٢) لُجج: جمع لُجَّة، وهي معظم الماء.
(٣) الأبيات من بحر الكامل، كما في روضة المحبين (٢٢٦).
(٤) قدِحة: القدحة: هم اسم لاقتداح النار، وتضرَّمت: أُشعلت وأوقدت.
(٥) الأبيات من بحر الطويل كما في روضة المحبين (٢٢٧).

قيل:

وما أحدٌ ما ذاق بؤس معيشةٍ فيعشـــقُ إلا ذاقها حينَ يعشقُ[(١)]

وقال آخر فيمن أحب:

يَشْقَوْنَ في هذه الدنيا بعشقهم لا يُرزقـــون به دنيا ولا دين[(٢)]

وقال آخر:

العشقُ مشغلةٌ عن كل صالحةِ وسكرةُ العِشق تنْفي لَذَّةَ الوَسَنِ[(٣)]

والوسن: (النعاس).

وقال آخر:

الحبُّ داءٌ عـــضالٌ لا دواء له يحـــارُ فيه الأطباءُ النحارير[(٤)]

وقالوا:

والعشق يجتذب النفوس إلى الردى بالطبع وَاحَسَـدَى لمن لم يعشق[(٥)]

وقال آخر:

وكان ابتداء الذي بي مُـــجُونا فلمـــا تمكَّن أمسى جنونا[(٦)]

والمجـون: الخلاعـة، والمعنى: أنني كنت مع من أحب كـأني ألعب فلمـا تمكن قلبي من حبها، صرت بها مجنونا مولهًا عاشقًا، ولذا قال بعدها:

---

(١) البيت من بحر الطويل كما في روضة المحبين (٢٢٨).

(٢) البيت من بحر البسيط وهو للأحنف بن قيس، كما في روضة المحبين (٢٢٨).

(٣) البيت من بحر البسيط، كما في روضة المحبين (٢٢٧).

(٤) البيت من بحر البسيط وهو لابن المعتزّ، كما في روضة المحبين (٢٢٩).

(٥) البيت من بحر الكامل، وهو لابن أبي حصينة، في روضة المحبين (٢٢٩) والردى: الهلاك والموت.

(٦) البيت من بحر المتقارب، كما في روضة المحبين (٢٢٩).

وكنت أظنُّ الهوى هيِّنا ... فلاقيتُ منه عذابًا مهينًا[١]

وقالت في ذلك المرأة التي أحبته:

رأيتُ الهوى حُلوًا إذا اجتمع الشَّمْلُ ... ومُرًا على الهجران لا بل هو القتلُ

فمن لم يذُقْ للهجر طعمًا فإنَّه ... إذا ذاق طعم الحُبِّ لم يدْرِ ما الوصلُ

وقد ذقتُ طعميه على القُرب والنَّوى ... فأبعدُه قتلٌ وأقربهُ خَبْلِ[٢]

قالوا: وداء الحب لا يترك المِلك حتى يصير مملوكًا والسلطان حتى يصير عبداً.

وقد قال الرشيد (الأمير) وقد عَشِقَ ثلاث جوارٍ من جواريه ويقال: إنه المأمون:

مَلَكَ الثلاثُ الآنسات[٣] عِناني ... وحَلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكان

ما لي تُطاوعني البرِيةُ كلُّها ... وأُطيعُهن وهنَّ في عِصْياني

ما ذاك إلا أنّ سلطان الهوى ... وبه قَوين أعزُّ من سلطاني[٤]

وقال أحد الملوك [٥] في جارية له وقد عشقها وتعلق بها تعلقًا شديداً، وكانت كثيرة التَّجنيٍّ عليه:

أما يكفيكِ أنك تَمْلِكيني ... وأن الناس كلَّهم عبيدي[٦]

وقال ابنُ طاهر ملكُ خُراسان:

فإنِّي وإن حنَّتْ إليك ضمائري ... فما قَدْرُ حُبِّي أن يَذِلّ له قدري[٧] .

---

(١) البيت من بحر المتقارب، كما في روضة المحبين (٢٣٠).

(٢) الأبيات من بحر الطويل كما في روضة المحبين (٢٣٠). ، والخَبْلُ: فساد العقل.

(٣) آنسات :مفرد : آنسة: وهي البنت التي تُؤنس لظرافتها ولطافتها.

(٤) الأبيات من بحر الكامل ، كما في روضة المحبين (٢٣٠).

(٥) هو: هارون الرشيد كما جاء في روضة المحبين (٥١٧).

(٦) البيت من بحر الوافر ، كما في روضة المحبين (٢٣١).

(٧) البيت من بحر الطويل كما في روضة المحبين (٢٣١).

وقال ابن الأحمر ملك الأندلس:

أيا ديَّةَ الخِدْر التي أذهبتْ نُسُكِي على كلِّ حال أنت لا بُدَّ لي منك[1]
فإما بِذلٍّ وهو أليقُ بالهوي وإما بعزٍّ وهو أليقُ بالمُلك

وقالوا أيضًا في داء الحب : وكم ممن هرب من الحب إلى مظانِّ التلف ليتخلص من التلف بالتلف.

قالوا: ورأينا الداخل فيه يتمنى منه الخلاص، ولاتَ حين مناص (أي لا مفر منه).

قالوا: وكم أكبتْ فتنة العشق رؤوسًا على مناخرها في الجحيم ، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرَّعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالت من نعمة ، وأحلَّتْ من نقمة ، ولم أنزلت من مَعْقِلِ عزّه عزيزاً فإذا هو من الأذلِّين ذليلاً، ووضعت من شريفٍ رفيعِ القدر والمنصب ،فإذا هو في أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة،وأحدثت من رَوْعة، وأعقبت من ألم، وأحلَّت من ندم،وكم أضرمت من نار حسراتٍ أحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدراً كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد! وكم جَلبت من جهد البلاء، ودرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فقل أن يُفارقها زوال النعمة، أو فجاءة النقمة، أو تحويل عافية ، أو طروق بليَّة ، أو حدوث رَزِيَّة ، فلو سألت النِّعَمَ ما الذي أزالك؟ والنِّقَمَ ما الذي أدالك ؟ (جعل الغلبة لك) والهموم والأحزان ما الذي جلبك ؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنَّبَك ؟ والستر ما الذي كشفك؟ والوجه ما الذي أذهب نورك وكَسَفك؟ والحياة ما الذي كدَّرك؟ وشمس الإيمان ما الذي كوَّرك؟ (جعلك تأفلين وتضمحلين)،وعزّة النفس مالذي أذلك ؛ وبالهوان بعد الإكرام بدَّلك ؟ لأجابتك بلسان الحال اعتباراً، وإن لم تُجب بالمقال حواراً:

هذه والله بعض جنايات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون، ويكفي اللبيب موعظة واستبصاراً ، ما قصه الله سبحانه وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً ، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس حامل لواء

---

(١) نُسُكي : عبادتي وصلاتي.والأبيات من بحر الطويل، كما هي في روضة المحبين (٢٣١).

الهوى والشهوة، فحمله هوى النفس ، وإعجابه بها على أن عصى أمره وتكبر على طاعته ، فكان من أمره ما كان ، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة، وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نُهي عنها، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجه منها إلى دار التعب، وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحواء، فحمله حُبُّه لها أن أطاعها ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوُّه من طريقها؟ ودخل عليه من بابها. فأوّل فتنةٍ كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر الله سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به، وما آل إليه حالهم بسبب كفرهم، ثم ذكر سبحانه قصة نوح مع قومه وما أصارهم إليه الهوى من الغرق في الدنيا ودخول نار الآخرة، ثم ذكر قصة عادٍ وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة، ثم قصة قوم صالحٍ كذلك، ثم قِصَّة العُشاق أئمة الفسق، وناكحي الذكران وتاركي النِّسوان من العالمين، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون[1] وقطع دابرهم وهم في سُكر عشقهم يعمهون وكيف جمع لهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمةٍ من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفًا ومثلاً للآخرين، ولما يجرؤوا على هذه المعصية وازدادوا في شرهم ونهجوا لإخوانهم طريقًا وقاموا بأمرها وقعدوا ، ضجت الملائكة إلى الله من ذلك الأمر وعجَّت الأرض إلى ربها ، وشكت السماوات وهربت الملائكة إلى أقطار السموات،وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات ، وهو سبحانه قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد الإعذار وإقامة الحجة عليهم، والتقدُّم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوءِ صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذَّن رسول الله ﷺ بالدعوة على رؤوس الملأ منهم والأشهاد ، وصاح بها بين أظهُرهم في كل حاضرٍ وباد، وقال فكان من قوله لهم من أعظم الناصحين : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف] فأجاب العُشاق جواب من أُركسَ في هواه وغيِّه فقلبه بعشقه مفتون، ﴿ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ... ﴾ [النمل:٥٦] فلما حان الوقت المعلوم وجاء ميقات يوم محتوم، أرسل

(١) في خوضهم : في حديثهم وكلامهم على غير هوى.

الله سبحانه لتمام الإنعام والامتحان ، إلى بيت لوطٍ ملائكة في صورة البشر، فكان من أمرهم ما كان.

ثم جاء الأمر من الله بخسف الأمة اللوطية ، فاقتلع الأمين جبريل عليه السلام مدائنهم على ريشةٍ من جناحه، ورفعها في جو السماء، حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وخوف الله سبحانه إخوانهم من بعدهم على لسان رسولنا الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ، ٨٣] فهذه عاقبة اللوطية عُشّاق الصور المحرمة، وهم السلف وإخوانهم بعدهم خلف لهم.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى حتى آل بهم الأمرُ إلى ما آل ، وكذلك أهلُ السبت الذين مُسخوا قِردةً، إنما كان ذلك بسبب حبهم الحيتان وشهوة أكلها والحرص عليها والمقصود أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوى أصلُ كل بلْية، ومَظِنَّة كل فتنة.

* * *

قصة عاشق(١)

قال عديٌّ بن ثابت: كان في زمن بني إسـرائيل راهبٌ يعبد الله حـتى كان يؤتى إليه بالمجانين يُعوِّذهم(٢) ، فيبرؤون على يديه وإنه أُتي له ذات مرة بامرأة ذاتِ شرف من قومها قـد جُنَّت، وكان لها إخوةٌ فأتوهْ بهـا، فلم يزل الشيطانُ يُزيِّنُ له حتى وقع بها فحملت ، فلما استبان حملُها لم يزل يُخوِّفه ويُزيِّن له قتلها والخلاص منها، حتى قتلها ودفنها، فـذهب الشيطان في صورة رجلٍ حتى أتى بعض إخوتهـا فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرجلُ يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتاني آتٍ فذكـر لي شيئًا كبُر عليَّ ذكـره، فذكر ذلك بعضهم لبعض حـتى رفعوا ذلك إلى ملكهم ، فسـار الناس إليه حـتى استنزلوه من صومـعته، فـأقر لهم بالذي فعل، فأُمر به فصُلب ، فلما رفُع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال: «أنا الذي زيَّنتُ لك هذا وألقيتُك فيه، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأخلِّصُكَ ؟ قال : نعم. قال: تسجد لي سجـدةً واحدة، فسجد له ، وقُتل الرجل، فـهو قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ ...﴾ [الحشر: ١٦] (٣) .

قلنا: هكذا يفعل العشق بالعـشاق، إما يصيرهم مجانين، وإمـا ينتهي بهم الحال إلى الفسق والفجور أو الكفر والعياذ بالله.

وكانت هناك امرأة من بني إسرائيل يُقال لها :«مَيْسُونَة» خاصمت إلى حَبْرَين (٤) من بني إسرائيل فعلِـقاها. قال: وكان كلٌّ واحدٍ منهـما يكتمُ صاحبه مـا يجدُ منها، فأُخبرا أنها في حائط (٥) تغتسل ، قال: فـجاءا فتسوَّرا عليها الحـائط ، فلما رأتهما دخلت غمـراً (ماءً كثيـراً) من الماء، فوارت نفسـها ، فقالا لهـا: إنك إن لـم تفعلي

---

(١) روضة المحبين (٢٣٨).

(٢) يعوذهم : يرقيهم، وعوَّذه تعويذاً، وأعاذه إعاذةً: دعا له بالحفظ ، ورقاه.

(٣) روضة المحبين (٢٣٨).

(٤) الحبر: بالفتح والكسر، العالم ، والجمع : أحبار.

(٥) حائط: بستان.

غدونا فشهدنا عليك بالـزّور ، فأبت ، فشهدا عليها فلما قُرِّبتْ ليُـقام عليها الحد نزل الوحيُ على دانيال بتكذيبهما ، فهذا بعض ما ذكر عن فتنة العشق.

قالوا: ويكفي من مضرَّة العـشق ما اشتهر من مصارع العُـشَّاق ، وذلك موجودٌ في كل زمان ومكان.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النِّساء.

وعن سعيـد بن المسيب أنه قال: «ما أيس الشيطـان من أحدٍ قطُّ إلا أتاه من قبل النساء»(١) .

وعن رسـول الله ﷺ أنه قـال: **«إن أخـوف مـا أخـافُ علـى أمـتي الخـمـر والنساء»**(٢).

* * *

(١) روضة المحبين (٢٤٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف بلفظ مختلف (١٥ / ٦٥).

العشق المحمود والمذموم

والعشق لا يُحمد مطلقًا ، ولا يُذمّ مطلقًا، وإنما يُحمد ويذُم باعتبار ما يتعلق به، فإن الإرادة تابعة لمرادها، والحبّ تابع للمحبوب، فمتى كان المحبوب مما يُحبّ لذاته أو وسيلةّ توصِّله إلى ما يُحبٌّ لذاته، لم تُذَمّ المبالغة في محبته بل تُحمد ، وصلاح حال المحبّ كذلك بحسب قوّة محبته، ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبه كلّها لله سبحانه وتعالى وحده، بحيث يُحبُّ الله بكلٍّ قلبه وروحه وجوارحه، فيُوَحِّد محبوبه ويوحِّد حبه، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبُه، وتوحيد الحبٍّ ألا يبقى في قلبه بقية حبٍّ حتى يبذلها له، فهذا الحب[1] . وإن سمي عشقًا فهو غايةُ صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيمٌ إلا بأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن تكون محبتُه لغير الله تابعةً لمحبة الله ، فلا يُحب إلا الله.

فإذا أحب زوجته أحبها لله وفي الله ، فيتقرب إلى الله سبحانه بحب زوجته والتودد إليها، وإحسان عشرتها، ثم إن العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون الله أحبَّ إليه مما سواه ، ومحبّةُ رسوله هي من محبته، ومحبة الأمر إن كانت لله فهي من محبة الله، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله، مُضْعِفة لها، وتصدُق هذه المحبة بأن يكون كراهتُه لأبغض الأشياء إلى محبوبه ، وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدم على محبّة نفسه وحياته شيئًا ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يُلقى في النار ولا يكفر كان الله أحبَّ إليه من نفسه، وهذه المحبّةُ هي فوق ما يجده سائر العُشاق والمحبين من محبة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مِثل لمن تعلقت به، وهي محبّةٌ تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد، وتقتضي كمال الذلّ والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبّة مخلوق ولو كان المخلوقُ من

(١) روضة المحبين (٢٤٢).

كان[١] .

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركًا شركًا لا يغفره الله ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] والصحيح أن معنى الآية: والذين آمنوا أشد حبًا لله من أهل الأنداد لأندادهم، كما تقدَّم بيانُه أن محبة المؤمنين لربهم لا يُماثلها محبَّةُ مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكل أذيً في محبة غيره فهو نعيمٌ في محبته ، وكل مكروهٍ في محبة غيره فهو قُرّة عين في محبته.

ومن ضرب لمحبته الأمثال التي هي في محبة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتجنِّي بلا سبب من المحب وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه عُلواً كبيراً فهو مخطئٌ أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيقٌ بالإبعاد والمقت ، والآفةُ إنما هي من نفسه وقلة أدبه مع محبوبه ، والله تعالى نهى أن يضرب عباده له الأمثال ، فهو لا يُقاس بخلقه .

والعشق إذا تعلق بما يحبه الله ورسوله كان عشقًا ممدوحًا مثابًا عليه، وذلك أنواع.

* * *

(١) روضة المحبين (٢٤٣).



الفصل الثالث

من أسباب العنف عند الأبناء

الفصل الثالث

من أسباب العنف عند الأبناء

إن من الأسباب التي أدت إلى ازدياد العنف والعناد عند الأبناء، مشاهدة أفلام العنف وأفلام الرعب والجريمة، ولقد تكلم العلماء كثيراً، وحذروا الآباء من هذه المشاهدات التي لا تسمن ولا تُغني من جوع، بل هي « ضِغْثٌ على إدباره» أي زيادة في بلة الطين، إذا كانت النشأة غير أخلاقية، فمشاهدة الولد لهذه الأفلام يجعله دائمًا يحاكي ويُقلد ما يراه دون فهم أو وعيٍ أو إدراك.

فالمراهق دائمًا له ميل فطري إلى التقليد ـ لا سيما إذا كان الأمر جديداً أو ملفتًا للنظر، أو جذابًا ، ومخالفًا للمألوف والعادي، إن هذه الأفلام تُصور القاتل على أنه بطل أسطوري، وهذا ما يجعل المراهق دائمًا يبحث عن البطولة والظهور ولفت أنظار الناس إليه.

ويظهر الأمر بوضوح فور انقضاء الفيلم، تجد الشباب وهم يتعاملون مع بعضهم البعض يفعلون ما يرونه ويشاهدونه دون إرادة منهم، هذا أمر واقعي ويحدث تلقائيا.

إن هذه الأفلام حقًا تصيب المراهق بالقلق، والاضطراب الانفعالي ، وهو في وقتٍ في أشد الحاجة إلى ضبط النفس والحصول على الراحة التي تكبح جماح نفسه وتهدئ من روعه، فالشباب فتوة وعتوة وإقدام وشجاعة، كل ذلك يحتاج إلى ضبط النفس.

إن استمتاع الشاب لهذه الأفلام يعقبه آثار نفسية وسلوكية خطيرة، قد لا يمكن السيطرة عليها.

* * *

١ ـ مخالفة رغبة المراهق في أهدافه

يجب على الوالدين أن يتركا للولد تحديد مصيره، لا سيما في مجال التعليم، ورغبته في ولوج طرق النجاح التي يريد أن يسلكها ، لكن لنا أن نحدد له، ونبين له الأفضل من الوظائف والمهن، بنوع من الترشيد والتوجيه المقرون بحسن العرض، والنزول إلى مستواه الفكري والعقلي .

أما تحديد المهن المناسبة، بل فرضها فرضًا على الولد، فهذا قد يأتي بآثار سلبية فقد يكون الوالد طبيبًا فيرغب في أن يكون ولده مثله، فيدفعه نحو مجال الطب، بصرف النظر عن قدرات ابنه وهواياته ورغباته ، وقد يكون الوالد مر بظروف منعته من الالتحاق بمجال الطب ، فيرغب في أن يحقق ابنه ما لم يحققه هو، وأن يعوض في ابنه ما لم يستطع هو، وقد تكون الأم كذلك بالنسبة لبنتها، وهناك من يجبر ابنه على التوقف عن مجال التعليم جُملةً واحدةً لمساعدته في محله التجاري مثلاً، على الرغم من أنه قد لا يحتاج لمساعدته.

وقد يكون الأمر على العكس من ذلك ، بعدم رغبة الابن في تكملة مجال تعليمه ، فيأتي الأمر على هوى الأب، فيسعى جاهداً في تلبية رغبته تلك، أما الابن الذي يُبدي نجاحًا مستمراً، ورغبة في التعليم ، فتصبح إرادة الوالد هنا غير مقبولة ، ومنع الابن من عدم تحقيق رغبته الحقيقية قد يتسبب في ضياع وقته وعمره، مع تعثره، حتى إن لم يصعب عليه اجتياز هذا المجال، فسيكون في بقية حياته في نوع من الكرب والهم، ولن يكون سعيداً ، لأنه يعمل عملاً لا يرغبه ولا يريده.

فالمراهق يواجه مشكلات عديدة، وخصوصًا اختيار مستقبله لا سيما الوظيفي أو المهني ـ لأنه يمر بفترة حرجة، وليس لديه الخبرة الكافية ، لغياب التجارب أما من ناحية الواجب تجاهه ، فالمساعدة والعون والإرشاد ، مع هداية البيان لا الضغط عليه في أي اتجاه يخالف هواه ورغبته.

وللمدرسين والمعلمين دور مهم مع الوالدين في تحديد تلك الغايات ، وهذا المستقبل والذي يتناسب مع قدرات ومواهب الولد.

لكن ترك الولد (المراهق) يواجه الصراعات بمفرده ، دون توجيه وإرشاد فإن ذلك يدفعه نحو التخبط في مجالات الحياة المختلفة فيضيع سنوات عمره في تجارب خائبة والنتيجة الحتمية خسائر مدوية بسبب اختياره الأسوأ الذي لم يكن هو يرضاه لنفسه أبدًا ، ويظل الأمر يمثل له عقدًا نفسيةً طوال عمره، لأنه لم يُنصح خير النصيحة، وقد تُرك هكذا، لا يحدد له هدفًا، ومثال ذلك أنك قد تجد طلابًا يلتحقون بعدة كليات (علمية أو نظرية) وينتقلون بين هذه وتلك دون تحقيق أي نجاحٍ في أيِّها.

ومن الأسباب التي دفعت الآباء إلى فرصة التوجيه لسلوك الأبناء، وتحديد مستقبلهم حسب ما يريدون : أماني الآباء، وحُب الذات والرغبات الشخصية.

١ ـ **أماني الآباء** : قد ينشأ نتيجة آمال الوالدين وجود حالة القلق والتوتر الدائمين للأبناء، مع خلق الصراع النفسي، ويؤدي ذلك حتمًا إلى إحباط شديد لدى الولد، ومن ثم يدفعه الأب دفعًا لتحقيق أهداف قد لا يريدها الابن ، لأنها لا تتفق مع قدراته وطموحاته، ومع وجود حالة من الاهتمام الزائد ، والخوف على الولد، لا سيما إذا كان الطفل وحيدًا ، ويلاقي عنايةً فائقة من والديه.

وقد أشار (جميس والتر) في دراسة على ١٦٦ طفلاً من المضطربين انفعاليًا إلى أن هناك علاقة قوية بين مستوى الطموح الأكاديمي للطفل من قبل والديه فيما يختص بالمستوى التعليمي للابن، وشدة الاضطراب الانفعالي له وكانت هذه العلاقة دالة على مستوى دلالة ٥٪[١] .

وهذا وقد يزداد اهتمام الوالدين بالطفل لتحقيق مستوى تعليمي معين أو الاشتغال بوظيفة محددة إلى اتجاه الطفل إلى أسلوب أخلاقي حتى يحقق رغبة والديه، كالغش في امتحانات الدراسة.

وفي دراسة اختبر فيها الباحث ١٠٢ طفل من أطفال المرحلة الأولى بإحدى المدارس الابتدائية بأمريكا وأمهات هؤلاء الأطفال ، وذلك في محاولة ربط مستوى الرغبة بالغش عند الأطفال بالتفاوت مع مستوى رغبة الأمومة، وانتهى الباحث إلى أن

---

(1) Jeams, W, 1968 , P. 1135 .

مستوى الطموح لدى الأطفال وسلوك الغش لديهم ارتبط بدلالة بمستوى الطموح الأموي، فالرغبة المرتفعة بين الأبناء ارتبط بطموح الأمهات المرتفع إيجابيًا، كذلك سلوك الغش(١) .

فلابد من التوجيه المناسب والهين في نفس الوقت ، مع عدم الضغط على الأبناء لاختيار مستقبلهم، ويجب علينا أن ندرس توجهاتهم وقدراتهم، حتى يمكن لنا أن نساعدهم على تحسين قدراتهم .

ولا يزعجنا أن الولد ضعيف نسبيًا في بعض المواد العلمية، لنكن معه هونًا ولنحمله رويدًا مع التعاون معه دون إظهار سلبياته والتمركز حولها، وجعلها هدفًا لكلامنا معه، فالرفق الرفق ، **«فما كان في شيءٍ إلا زانه وما نُزع من شيءٍ إلا شانه»** أي إن الرفق في كل أمر يأتي معه العاقبة الحسنة، والعنف لا يأتي بخير أبدًا.

٢ ـ حب الذات والرغبات الشخصية: لدى الآباء، فكل أب يحتاج إلى ابنه ليكون ركيزة أثناء حياته هو، فهو ينظر من هذه الزاوية، دون نظر إلى رغبات ابنه، ومن الطبيعي أن يحب الأب ابنه، لكن كما قيل: ومن الحب ما قتل. فالحب مطلوب لكن بدرجة معقولة حتى لا يسأم الابن من والده فبعض الآباء لا ينظرون إلى مستقبل أبنائهم، ولا صحتهم النفسية، قد يقول أحد الآباء، عندما تخرج ابنه من الجامعة، أو لم يتخرج بعد: اجلس هنا مكاني (أي في عمل والده إن كان في مصنع أو غيره) وذلك رغبة منه أن يستريح بعد شقاء العمر، وتكوين الثروة، فحتى لا تضيع وحتى لا يُهدم اسم الوالد، طلب من ولده أن يكمل المسيرة ليكون امتدادًا له والابن قد لا يشعر بانقضاء سنوات عمره أو ضياعها ـ لا سيما مع عدم استكمال سنوات الدراسة ـ والتي قد يحتاج إلى هذه الشهادة يومًا ما ، مع انتهاء شركات والده أو إفلاسه، ويجد نفسه نزيل البطالة مع فوات فرص قد كان لا يفكر فيها.

وقد يكون الأب بخيلاً، فلا يساعد ابنه على استكمال سنوات التعليم التي يرغب

(١) Nicholas, 1974, P.P. 5164 ` 5164 .

فيها، مع كونه غنيًا ويستطيع الإنفاق عليه فيقول الأب البخيل: كفي نفقة على هذا الولد، فكل هذه السنوات الماضية قد أنفقت عليه كثيراً، وبقي لي أن أستمتع بأموالي بقية عمري، مع اعتقاده أن هذا الجيل عاق لوالديه، وبالتالي فلن أنفق عليه، فلن يراعني عند الكبر، وهذا القول غير مقبول لأنه عجز عن تربية ولده التربية الصحيحة ولم يهتم بابنه حال صغره ، فهو لأنه لم يراعى حق ربه ، فلن يراعي حق والديه فلو علمه دينه لكان باراً به كريمًا له، فإذا ما أهمله وتركه فلا يلومن إلا نفسه وقد ذهب رجل إلى النبي ﷺ يشتكي له من عقوق ابنه له ، فلما جاء الابن قال له النبي ﷺ: «لماذا تعق أباك ؟» فقال له الابن: يا رسول الله ، لقد عقني قبل أن أعقه، فقال له النبي ﷺ : « لم ؟ » فقال يا رسول الله: إنه ـ أي والده ـ اختار لي أمًا سيئة، وسماني حربًا، فقرر هذا الولد أن أباه عندما اختار له أمًا ليست على خلق كريم ، فهذا قد أدى إلى سوء تربيته، بل إن الأب قد اختار له اسمًا سيئًا غليظًا يُنفر منه أي أحد، ولهذا استحب النبي ﷺ أن يغير هاتيك الأسماء كصخر وحرب.

* * *

ومن أسباب التفكك الأسري ـ جلب الخادمات للمنازل

وهذه الظاهرة أصبحت منتشرة بصورة لم يسبق لها مثيل في الأوساط العربية، والتساهل في هذا الأمر أضحى أمراً عاديًا، وهذه قضية قد غفل عنها الكثير ، فقيام الخادمة ـ لا سيما التي لا تعرف شيئًا عن الدين الإسلامي ـ بدور الأم المربية ـ نتج عنه آثارٌ خطيرة مدمرة، وقد كثرت ظاهرة الخادمات في دول الخليج خصوصًا وإن كانت بقية الدول كمصر جلبت مؤخراً عدداً ليس باليسير.

وهؤلاء الخادمات غالبًا غير مسلمات ، مع انخفاض مستوى التعليم لديهن ، بل إن كثيرات منهن أميات ، ولا يتحدثن اللغة العربية، إنما منهن البوذيات والهندوسات والنصرانيات من غير العرب[1] ، وبعضهن ـ بل وغالبهن في سن العشرينيات ـ أي سن المراهقة ، وفي البيت أولاد قد بلغوا سن المراهقة ، فقد يؤدي ذلك إلى الاعتداء عليهن جنسيًا من قبل هؤلاء الأولاد والذين هم في سن الشباب فلا يسوغ لنا أن نتساهل في ترك هؤلاء الخادمات في المنازل مع المراهقين كما يجب أن يتخير الآباء خادمات هن على خلق ودين، وأن يكن ملتزمات متعلمات، مع ضرورة توفر الضوابط الشرعية لوجودها في المنزل .

* * *

(١) انظر: التفكك الأسري الأسباب والحلول المقترحة د/ أمينة الجابر ١٤٢٢ هـ.

كيفية التعامل مع الشباب تحت العشرين

في تلك السن يتصور الشاب أنه قد أصبح رجلاً، ويحتاج من الجميع أن ينظروا إليه هاتيك النظرة، فهو قد رأى نفسه قد قويت عضلاته وعلا صوته ، فلقد حدثت له حقيقة تغيراتٍ جسمانية ونفسية وعقلية ، فلم يعد طفلاً كما كان بالأمس، فيجب علينا ألا نسخر منه ولا نقلل من شأنه ولا من أفكاره وتعليقاته وتصوراته فمثلاً ، عندما يرى شيئًا ، هو من وجهة نظرنا أنه خطأ ، فيجب علينا أن نعي جيداً خطورة النقد وسلبيات التوجيه، فإن لم يكن التوجيه مُسدداً مأمون العاقبة، فلا داعي لخلق نوع من العداوة والبغضاء أو الكره في نفسية هذا الشاب بل يجب أن يكون التوجيه في صورة إرشاد .

ومن الأمور التي يجب مراعاتها، عدم محاسبته على كل الأخطاء ، فإن ذلك يصيبه باللامبالاة ، حتى يصاب بالإحباط ، بل ربما أتى الخطأ بصورة طبيعية وبصفة مستمرة ونحن نقول في أنفسنا : إن المراهق كثير الأخطاء، وهو كطفل صغير في تصرفاته، وهو يُحب أن تعامله كرجل، فلا تقل له: «هذا خطأ يفعله الصغار» فهذا يسبب له أزمة لأنك تتعمد الاستهزاء به، فأنت تتعمد أن تتصيد له الأخطاء حتى تحاسبه عليها، أولاً بأول.

ونحن ككبار نخطئ بلا شك ، لكننا لن نقبل النقد من غيرنا ، ولا أن يحاسبنا، فلماذا نسارع في محاسبة أبنائنا على كل خطأ؟!

وبعث الثقة في نفس المراهق شيء مهم جداً في هذه المرحلة ، فافتقاده لتلك الثقة يزرع بذور الخيبة والكسل والخمول ، وإذا حدث ذلك ، فلن نستطيع اقتلاعه بسهولة.

* * *

أمور يجب التنبيه عليها

١ ـ أمر الولد بالعبارات وتعويده عليها منذ الصغر ـ لا سيما الصلاة والصوم لأنه أصبح مكلفًا ، فالله سيحاسبه ، فلابد أن نعلمه ذلك ونكرره على مسامعه ليلاً ونهاراً.

قال أحد العلماء: وينبغي تعليمه الصوم أيضًا من هذه السن، وعندما يبلغ يصبح مكلفًا ، فلا يترك الصلاة أبداً، ولا صوم رمضان، بل يجب تعليمه الصدقة ، ولو بجزء يسير من مصروفه ، حتى يتعود أن هناك آخرين لهم حق في ماله ، مع تعويده مساعدة الآخرين ، ليعلم أيضًا حقهم عليه، وأنه لا يمكن له أن يعيش بمفرده دون مشاركة الآخرين وخدمتهم ، فالمراهق في هذه الفترة له عاطفة فياضة في العطاء والبذل والتضحية ، فلابد من صرفها فيما يفيده وينفعه.

٢ ـ مشاركة المراهق في اتخاذ قراراته ، فيمكن لك أن تأخذ رأيه في بعض الأمور ثم توضح له وجهات نظرك ، مع بسط المزايا والعيوب، حتى تعوده على التفكير السليم، والقدرة على اتخاذ القرارات.

٣ ـ ثم لك أن تسند له بعض الأعمال مع مراقبته من بعيد، فهذا فيه تشجيع له بطريق غير مباشر، مع استئمانه على بعض الأمانات والأسرار، حتى يتعود على حفظ تلك الأمانات ، وهذه الأسرار.

٤ ـ لا تستخدم معه أسلوب الضرب في هذه السن، بأي حال من الأحوال ، فهذا يترك في نفسه أسوأ الأثر، وربما أوقعه في أزمة نفسية لا يمكن البرء منها، ولك استخدام طرق أخرى غير الضرب ونجعله يتحمل نتيجة الخطأ نوعًا ما، ليتعلم كيف يتصرف ويعتمد على نفسه في الأمور.

٥ ـ فإذا لم يوفق في بعض الأعمال يجب أن نعذره ، لكن ليس لنا أن نشعره

بفشله وخيبته ، فتقول له: إنك إن لم توفق في هذا الأمر ، فيجب أن تأخذ العبرة من هذا الموقف ، فلا يمكن النجاح بغير فشل، وكثير من الناس قد يتعثر عليه أحد الأمور.

٦ ـ يجب زرع معاني التضحية والجهاد والدفاع عن نفسه ووطنه وماله وعرضه ومقدساته ودينه حتى يتعود الذود عن كرامته، ثم نروي له قصص أجدادنا وعلمائنا وأئمتنا وأبطالنا ،فأمتنا أمة عظيمة تشتمل على ثلة من الأبطال ما ليس لأمة من أمم الأرض فهؤلاء منهم خالد بن الوليد ـ سيف الله المسلول ـ وعمرو بن العاص ـ داهية العرب والقعقاع بن عمرو ـ ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي فاتح بيت المقدس وغيرهم كثير وكثير، فمنهم من حرر بلاد المسلمين ومنهم من رفع راية العلم ونصرة الدين .

٧ ـ تعليمه حسن التوكل على الله، والثقة به سبحانه ، وخلق الشجاعة وعدم التقهقر إذا واجه الأعداء ، وهذا كله يخضع لمواقف عديدة وخبرات من الأبوين .

* * *

ضرورة الاهتمام صحيا بشاب العشرين وفتاة العشرين

ومن ذلك تزويد المراهق ببعض التعليمات الصحية ، مع عدم الإسراف في صحته فهو في هذه المرحلة ينمو كما وكيفًا، طولاً ووزنًا ، عقلاً ونفسًا، فيجب أن يتجاوب مع مسألة التغذية السليمة ، وتوعيته من الناحية الصحية ، ومن ذلك:

الاهتمام بنظافة جسمه وأدواته ، وملابسه ، والبعد عن الاختلاط ـ لا سيما أماكن العدوى، مع إرشاده وحثه على ممارسة الرياضة بأنواعها المختلفة فقد تمنحه الثقة بنفسه وتنمية مواهبه واستغلال وقته وجهده فيما ينفعه ويجب أن يمنع منعًا باتًا عن ممارسة التدخين ، فهو في هذه المرحلة قادر على منع نفسه، فهو يتمتع بنفس قوية، وعزيمة جبارة ، فإذا لم يستطع منع نفسه عن ممارسة بعض العادات السيئة مثل التدخين والعادة السرية، فلن يقدر بعد ذلك أبدًا ، كما يجب إمداده بالكتب والأشرطة الدينية النافعة التي تقوي إيمانه ، فهذا من أوثق وآكد الأمور، فتقوية علاقته بالله سبحانه تعصمه إن شاء الله من الزلل والخطأ والانزلاق في مهاوٍ كثيرة.

* * *

وجود الأب في تلك المرحلة ضروري جداً

إن ما يفعله بعض الآباء الجهلاء بسفرهم خارج البلاد لجمع المال لأولادهم يدعو إلى عدم الاهتمام بتربيتهم شيئًا فشيئًا، والاقتصار على الجانب المادي فقط يأتي بآثار سلبية جدًا.

فوجود الأب ورعايته لأولاده بجانب الأم يمثل أمرًا هامًا في حياة الأبناء فالولد يحتاج دائمًا إلى من يوجهه ويراقبه في تصرفاته وأفعاله ولابد أن يكون هذا الجانب من مراقب حنون محب.

وسواء ترك الأب والأم الأولاد لأقاربهم أو سافر الأب وترك الأم ، يتعرض الأبناء لا شك إلى الانحراف مع مواجهة الصعوبات البالغة ، والأم وحدها لا يمكن لها مواجهة سلوك الأولاد ولا السيطرة عليهم، فقد تخضع لرغباتهم غير الصحيحة، مع عجزها التام عن ضبط بعض سلوكياتهم.

فالشاب والفتاة في هذه السن لم يفقدوا عطف آبائهم فحسب ، وإن كانوا يشعرون إلى حد ما بالاستقلالية، ومع ذلك فهم في حاجة إلى من يستمع لمشكلاتهم، مع توفر الصدق والنصح والأمانة ، والوالد الواعي هو الذي يجعل نفسه صديقًا أمينًا وفيًا ، فيجيب عن تساؤلاتهم، مع بث روح الطمأنينة في نفوسهم، حتى يثبت قدم ولده على مرحلة الرجولة، ليصبح واعيًا عاقلاً في مجتمع الرجال، مع تهيئة الفرصة له بعيداً عن الأفكار الرديئة التي قد تقتحم تفكيره.

فوجود الأب في هاتيك المرحلة أضحى شيئًا لا يمكن الاستغناء عنه، لا سيما الأب المتعلم الواعي، فلا يمكن تعويضه بمال أو جاه، لأن إحساس الأبناء بعدم وجود الرقابة عليهم يجعلهم في تخبط بسبب الحرية الزائدة وها هم أصدقاء السوء ، وهاهي وسائل الانحراف من إدمان واستهتار وضياع ، والذي يساعد على ذلك لا شك إعطاء الولد أو البنت المال بغير حساب فماذا عساه أن يفعل الوالد بحال بعدما رجع ووجد ابنه أو ابنته قد وقعا في مستنقع الانحراف ، فهذا كله مسئولية الآباء والأمهات، قال

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ... ﴾ [التحريم: ٦] ولا يمكن إغفال الجانب المادي أيضًا، فهو من المسائل المهمة التي تساعد الأبناء على الاطمئنان على مستقبلهم ، فهذا رسول الله ﷺ يوصي فيقول: **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول»** وقال لسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وكان غنيًا وأراد أن يوصي بثلث ماله فقال له النبي ﷺ : **«إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة**(١) **يتكففون الناس»**(٢) .

لكن التوسط في الأمور مطلوب ، فلا ينفق ببذخ ولا يسرف ويبسط يده كل البسط ثم يقعد بعد ذلك ملومًا محسوراً على ضياع أبنائه، فلا هو اطمأن عليهم وعلى أخلاقهم ، ولا هو أمن شرهم، بل سيصبحون نقمة عليه في الدنيا قبل الآخرة ولن ينفك عن ضرر لاحق به، قال تعالى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ [التوبة: ٥٥] فسينقلبون عليه آخر الأمر، والأمر لا يعدو إلا كما قال القائل: «سَمِّن كلبك يأكلك» فقد رباه وأنفق عليه وضيع سنين عمره في جمع المال، ثم بعد ذلك يجني الثمرة حنظلة وغَسْلِينًا، فالثمرة المرة هي جزاء تفريطه في تربيته.

فلابد أن يكون الآباء على دراية كاملة بخطورة مراحل التربية، مع خطورة التحديات التي يواجهها الشباب ، وقد لا أبالغ إذا قلت: إذا لم يقدر المرء علي هاتيك المسئولية فلا يتزوج ولا ينجب أبناء، فهذا كما قال القائل: «ضِغْثٌ على إدباره» يعني زيادة في الطين بلة، فسيحاسبه الله عن نفسه وعن ولده.

قال رسول الله ﷺ : **«كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»** فلا يعقل بحال أن أتعب وأنفق وأضيع وقتي وحياتي على ولدي ثم أتركه فريسة للأخطار المدوية والأفكار المدمرة، فهذا البث المباشر، وذاك الإنترنت وغير ذلك كثير ، والفتن والمغريات مع ذهاب الضمير، والوازع الديني، وغياب الصحبة الطيبة وتقصير الأسر

---

(١) عالة : أي فقراء.

(٢) والحديث رواه البخاري (٣/ ١٣٢) ومسلم (١٦٢٨).

والرقابة كل ذلك من مؤامرات الأعداء السـرية والعلنية ، فكيف يُعقل أن يُترك الأبناء هكذا يواجهون.

ولكي يصل الآباء إلى تفـهم الموقف جـيدًا يجب عليـهم دراسـة المذاهب المنحلة وخطط العلمـانية التـي تُبث في ديار المسلمين، مع دراسـة فقـه الواقع والتعـامل مع الأحداث حتى يتسنى لنا التصرف بحكمة تجاه ما يمكن أن يحدث ، وما يمكن توقعه، فقـد يفاجـأ الأب يومًا مـا بفعل غريـب صدر من ابنـه أو ابنتـه، فكيف يتـسنى له المواجهـة ـ فضلاً عن العلاج وهو جـاهل لا يعلَم إلا كيف يجمع المال وكيف ينفق ، فقد ينساق هو الآخر مع ولده ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

الاهتمام بالجانب العقلي والثقافي لشباب العشرين

فكما يهتم الأب بتنمية جسم ولده ، فعليه أن يهتم أيضًا بتنمية عقله، وكثيراً ما يغفل الآباء عن ذلك ، فتراه يشتري له ما يحبه من ملابس وهدايا ، بل ويذهب به إلى الأماكن الترفيهية وغير ذلك ، لكن ما اصطحبه إلى ندوة علمية أو دينية أو اشترى له كتابًا يناسب المرحلة العمرية ، فالشاب قد أصبح مفكراً ، فبدلاً من صرف عقله إلى ما يضره ، يجب علينا تهيئة الفرصة له لكي ينمي عقله ومواهبه فالقراءة وسيلة من وسائل المعرفة، وبدونها لن يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيراً متزنًا ، فهذا هو التطور الثقافي يغزو بلادنا ، وشبابنا يقف مكتوف الأيدي مبهوراً مهزومًا، فإذا لم نلاحقه أصبحنا متخلفين ، فلابد من متابعة الأخبار ، ومعرفة كل جديد ، ولا نرضى بعيش الجهلاء.

ومما يساعد المراهق على تنمية قدراته وقوف الدولة بجانبه في توفير بعض الآليات المتوازنة حتى يمكنه استخدامها في بعض الاختراعات البسيطة ، مع توفير تكنولوجيا المعلومات الحديثة.

* * *

«أهمية الوقت في حياة الشاب»

قال النبي ﷺ : **«اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك ، وحياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك ، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك»**(١) .

وقال الإمام الجليل الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يابن آدم إنما أنت أيام، فإذا انقضى بعضُك ، يوشك أن ينقضي الكل ، إذا انقضى البعض . فالوقت عامل مهم في حياة الإنسان، وعند كثير من شباب اليوم لا يهتمون بذلك وفجأة يرون أنفسهم وقد مرت بهم سنون العمر تنقضي في لمح البصر، بل إن بعض الشباب يتفننون في تضييع أوقاتهم.

فالوقت هو الحياة، وهو يمر بسرعة البرق، ولا يكاد المرء يشعر به ، ومن السهولة جدًا تضييعه، فلا بد من توعية المراهق بخطورته وأهميته ، فسيأتي عليه يوم يندم على ما فاته ويقول: يا ليتني قدمت لحياتي ، فالصحة أمانة والوقت أمانة وسيسأل عن كل ذلك يوم القيامة ، يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه وعن كل شيء سيسأل وسيقف الموقف الأعظم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فإذا علم الشاب ذلك جيدًا ، تأتي المرحلة الثانية وهي إشارة إلى حسن استغلال الوقت والاستفادة منه على أعلى المستويات، ولا يختار من العمل إلا أعلاه ومن الأفعال إلا أقومها وأهمها ، قال النبي ﷺ : **«إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها »** ويحب سبحانه إذا عمل الرجل عملاً أن يتقنه ويجوده ويضبطه ، هذا هو سر النجاح عند الغربيين ، أنهم تفرغوا وأتقنوا وما كذبوا وما فرطوا ، هذا في جانب الأعمال الدنيوية ، لذلك هم نجحوا وتفوقوا ، بل وسادوا وتقدموا ، فيجب علينا إذن أن نخطط للمراهقين التخطيط الجيد ـ حتى يتعود التخطيط السليم في حياته،

---

(١) حديث صحيح رواه الحاكم وغيره بسند صحيح.

ومن التخطيط القـديم دراسة كل شيء وتوقع أي شيء ، مع وضع كافة الحـسابات، فعليه أن يجلس ومعه ورقة وقلم، ثم يحـدد ما يطلبه ويريده، ثم يضع الخطة المناسبة مع وضع الخيارات والتوقعات، ولا يكن مغاليًـا في خطته، فيضع أعمالاً ومشروعات والأوقات والإمكانات لا تسعـفه ، بل عليه أن يكون واقعـيًا ، وليأخذ وقتًـا محدودًا بسيطًا لوضع هذه الخطط ، ثم يضع حـسابًا لما قاله النبي ﷺ : «**لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه** »، فقالوا : يا رسول الله ، كيف يذل المسلم نفسه ؟ قال: « يتعرض للبلاء ما لا يطيق » والمعنى أن يكلف نفـسه فوق طاقتهـا وما لا تستطيعه ، فكمـا قال أحد السلف[١] : «أنا ما دخلت في شيء حـتى هيأت لي الخروج مـنه» والمعنى أنه ما بدأ في عمل أو أراد شـيئًـا حتى يضع خطة للخـروج من هذا العمل أو وضع حـسابا لما يمكن أن يحدث من وراء هذا العمل أو ذاك الفعل.

* * *

(١) هو ابن الجوزي رحمه الله كما في كتابه الجليل «صيد الخاطر».

توجيهات لممارسة الأعمال والمشروعات

١ ـ التخطيط السليم المتوازن.

٢ ـ التنظيم الجيد للوقت مع وضع خطة عامة للأعمال المطلوب إنجازها، من أجل وضع كل شيء في نصابه ، من خلال خطة الوقت في اليوم ،والساعات المتاحة للعمل وساعات الراحة من نوم ويقظة ، وليكن ذلك في جدول.

٣ ـ وضع مقدار مناسب لكل عمل على حدة، مع تحديد الوقت الذي يمكن أن تبدأ به وتنتهي فيه .

٤ ـ لا تضع الأعمال الصعبة بجانب بعضها، وليكن جدول الأعمال متنوعًا .

٥ ـ لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، واتخذ مخالفة جدولك عدواً لك ، ولا تعط الفرصة للتقصير أو الملل ، واجعل التسويف أكبر مشكلة يمكن أن تواجهك فاثبت وكن رجلاً ولا تؤجل . . . فإلى متى تؤجل ؟ إلى غد . . . وبعد غد فغد لن يأتي أبدًا ، وإن غداً لناظره قريب، وقد لا يأتي غد ، وقد تذهب أنت وتذهب برامجك وأفكارك أدراج الرياح ، فاحذر التسويف وتضييع الأوقات واغتنم الأزمان وزاحم الأوقات تصل إلى ما تريد وابدأ واستعن بالله ولا تعجز ، فإن العجز قرين الكسل، وإن ما فات ما فات إلا بالكسل ، فاهجر النوم وحَصِّل طموحاتك وآمالك.

٦ ـ لا تنظر إلا إلى الناجحين والمتفوقين ، فإن رؤية الفاشلين وأرباب السلوك السيئ لا تزيد إلا وهنا ، ولن تتقدم إلى الأمام أبداً.

٧ ـ ولا مانع من أن يتخلل برامجك وجدول أعمالك شيء من الترفيه ، فهذا فيه نوع لبعث النشاط في النفس.

* * *

التحذير من مهلكات الوقت

١ ـ التليفزيون: من أخطر أجهزة العصر، وهو سلاح ذو حدين ، ولن يسلم منه إلا العارفون العالمون ، أما شباب هذه الأيام، فهم قليلو الإدراك لأخطار هذا الجهاز، فهـو يعرض الحلال والحرام ، ومـا يجوز وما لا يجـوز، بل يبث السم في العسل ، فالشـاب المراهق يجلي الساعـات الطوال أمامـه يشاهد فنون اللهـو والرقص واللعب وقلما يستمع لبرنامج علمى هادف.

٢ ـ الكمبيوتر : ذاك الجهاز الذي يشبه المخدرات ، ومع أهميـة استخدامه وكثرة فوائده ، إلا أن مـضاره قـد عمت وفـشت حتى راح الشـباب يلهث وراء الإنتـرنت بمواقعه وألعابه التي تسحب الوقت سحبًا .

٣ ـ التليفون : وأيضًا الهاتف أصبح وسيلة لا لقضـاء المصالح، بل للتسلية وقتل أوقات الفراغ بالمعاكسـات الفارغة والمضايقات المستمرة، ففيـه انتهاك لا شك لحرمات البـيوت ، فـلابد من توجيـه نظر الشبـاب إلى هذه الظاهرة ولفت النظر إلى حـسن التعامل معها والاستفادة بها.

٤ ـ أصدقـاء السوء : وهم كمـا قال ابن مسعـود ـ رضي الله عنه : «ليس أنفع للعبـد من النظر إلى الصالحين وإلى أفعـالهم ، وليس أضر على العـبد من النظر إلى الفاسـقين وإلى أفعالهم » فرؤية أهل الفـساد في حد ذاتهـا مهلكة ، فكيف بالجلوس معهم ومخالطتهم.

٥ ـ الاستفادة من أوقات الفراغ وطاقات المراهق الكامنة، فإمكانات الشباب كبيرة جدًا، وإذا كانت بهذه المثـابة، فلابد من استغلالها أفضـل استغلال والوقت أغلى من الذهب ، ولا أخطر من الفراغ ، قال النبي ﷺ : «**نعمـتان مغـبون فيهـما كثير من الناس: الصـحة ، والفـراغ**» والمعنى: أن كـثيرًا من النـاس لا يفطن إلى أهميـة شأن الصحة، فقد يفرط فـيها وهو لا يشعر ، وما أكثر المفرطين المضيـعين لصحتهم، وأما الفراغ فهو الهلكة الحقيقيـة إذ أن الوقت يمر بسرعة وقد لا يحس به الإنسان فينسحب عنه بساط العمر دون فائدة ودون أية إنجـازات ، وعلاج الأمر يمكن على مراحل، فله

مثلاً استغلال هذا الوقت بقراءة نافعة، أو رياضة أو ترويح عن النفس إلى المتنزهات العامة أو مشاهدة برامج هادفة... إلخ فإن هذا سيؤدي إلى إزالة التعب وتجديد النشاط والحيوية عنده، وليعلم أن أوقات الفراغ تغري - لا سيما والباطل أضحى كثيراً، والمبطلون والبطالون يملأون الطرقات والشوارع ، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، والفراغ مقبرة الإنسان ، فلابد مراعاة الأوقات ومنافسة الأزمان قبل فوات الأوان.

* * *

التحذير الشديد من الانطوائية

إذا لم يكن للشاب صداقات جيدة، سيصاب حتمًا بالانزواء وخيبة الأمل، ويصبح بطبيعته انطوائيًا، فتحدث له أضرار في حياته ، قد لا يمكن معها العلاج فيما بعد.

وللآباء دور في تكوين هذه الانطوائية إذا كانوا ممن يخافون على أبنائهم خوفًا شديدًا، ومن هؤلاء الذين رزقوا الولد بعد وقت طويل من عدم الإنجاب أو الذين لديهم ولد واحد، فهؤلاء يصبحون قيودًا على أبنائهم من خلال المضايقات المستمرة والتدخلات السخيفة في شؤونهم الخاصة، وقد تشبه هذه القيود القيود المفروضة على الأطفال الصغار.

وقد يكون الولد مصابًا بعاهة أو عيب ظاهر، أو نحو ذلك مما يجعله يخشى دائمًا من السخرية، فيدفعه ذلك إلى الانطواء والابتعاد عن الناس وهنا يجب على الوالدين بذل الشقة في نفس الولد، وعدم تركه بمفرده دائمًا ومساعدته إن أمكن بإخراجه من هذه الأزمة شيئًا فشيئًا.

مع حثه على إقامة العلاقات الاجتماعية الجيدة مع الاقتران ، وعدم الخوف منهم، كما أن هناك حقوقًا للمراهقين يجب ألا نتغافلها ، ولا نمنعه عن ممارستها حتى لا نعامله كطفل صغير، ويتسبب ذلك في تطوير مشكلة الخجل والانطوائية لديه، فيمكن لنا أن نكلفه ببعض المسئوليات ، حتى يتعلم كيف يكون رجلاً معتمدًا على نفسه، ولحقوق الأسبقية في السن داخل منزل الأسرة شيء مهم، وهي تعتمد شيئًا ما على العادات داخل كل أسرة ، ومن ذلك مثلاً قد يكون في الأسرة: أن الكبير له الحق في بعض الأشياء كالسهر ليلاً، أو إعطائه حرية أكبر في مجال العمل خارج المنزل، وغير ذلك ، لكن السن كما أنها تمنح بعض الميزات ، فإنها لا شك تحمل مسئوليات أكبر[١] .

---

(١) «أخطاء شائعة في التعامل مع المراهقين» لعادل فتحي عبد الله - مكتبة دار الإيمان (٤٨).

عدم العدل بين الأبناء وازدواجية المعايير والتصرفات

قد لا يفهم الآباء مدى الضرر الذي يمكن أن يلحق الولد إذا أحس أن والده يُعامل أخاه أفضل منه أو يمنحه بعض المميزات، وإن كانت من وجهة نظره هي تفضيل لكن ليعلم الآباء أن العدل في العطاء واجب والعدل في بذل المشاعر والأحاسيس أيضًا مندوب إليه وقد يتسبب عدم تحقيق العدل بين الأبناء إلى توليد الكراهية في نفوسهم على المدى الطويل، ويؤدي ذلك حتمًا إلى كراهية الوالد نفسه.

وليكن شعارنا دائمًا «**ألكل ولدك أعطيت**» هكذا قال النبي ﷺ للرجل الذي أعطى ولدًا من أولاده عطية ولم يعط الآخرين، فقد ذم النبي ﷺ ذاك التصرف، وأرشد الوالد إلى ما يصلح به أبناءه ، بضرورة خلق نوع من المساواة في معاملة أبنائه.

* * *

الازدواجية في المعايير

وحتى لا يُصاب الشاب بالحيرة والقلق، واختلاط المفاهيم ، ويتوهم الصواب خطأ والخطأ صوابًا، يجب توحيد المرجعية ، وتحديد المفاهيم فإذا رأى الولد المعلم يقول له: لا تفعل كذا حتى تكون رجلاً صالحًا نافعًا، ثم يذهب إلى البيت فيجد والده يفعل عكس ذلك، أو العكس ، فإن ذلك ينشيء لديه نوعًا من الازدواجية التي تجعله في حيرة من أمره، وخصوصًا أن خبرته في الحياة قليلة ، وقد يصاب بفقدان الثقة في والديه ومعلميه وهذا ما يدفعه غالبًا إلى الانحراف السريع ، فما دامت المعايير مزدوجة والصواب والخطأ، والحق والباطل أمرًا نسبيًا فما المانع أن يجعل لنفسه معيارًا ثالثًا وأمرًا خاصًا يسير هو عليه[1] .

فيجب علينا إذن الحذر الشديد في التعامل مع المراهقين كما يجب أن لا يختلف الأبوان في تقسيم الأمور ـ لا سيما الأمور ذات الأهمية لدى المراهق الشاب والتي تمثل قيمًا ثابتة كما يجب أن تكون أساليب التربية في حد ذاتها مستندة إلى أصول وضوابط منظمة ومتدرجة فيجب مثلاً أن يفهما من هو الولد الطيب الرشيد، وما هي المعايير في تحديد عناصر الإصلاح والرشاد ، والفرق بينه وبين الولد الشرير، وما هي الصفات الواجب التخلي والابتعاد عنها، وما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها حتى يصبح نافعا لنفسه ولمجتمعه.

من أجل ذلك لابد أن تتحد لدينا المرجعية، فمعايير الحلال والحرام لابد وأن تكون واحدة، ولا خلاف عليها، وهذا لا شك لن يتأتى في المراحل المتأخرة من الزواج ، بل لابد من تحديد المعايير منذ البداية وعند اختياره لشريكه حياته ، كما أن اتحاد المعايير في مسائل الحلال والحرام ليس كافيًا ، بل لابد أن تكون في شتى النواحي، كالأفكار والاتجاهات والنظرات يجب أن تكون واحدة من الناحية النظرية ومن الناحية التطبيقية والعملية.

---

(١) أخطاء في التعامل مع المراهقين» (٤٨).

فمثلاً ، وهذا يحدث كثيراً ، أننا جميعًا نؤمن بموضوع الرزق ، وأنه بيد الله وحده وأن سعي العبد لذلك تحصيل حاصل وليس إلا مجرد ربط الأسباب بمسبباتها، إذن من الناحية النظرية نؤمن بهذه النظرية ومع ذلك قد تجد الوالد يغش في تجارته أو يكذب ظنًا منه أن ذلك قد يزيد في تجارته، لكن المسلم الملتزم بتعاليم الإسلام والذي يجتهد في طاعة ربه دائمًا كان يجب عليه أن يختار امرأة تتفق معه في فهم هذه التعاليم حتى لا تدفعه إلى الحرام يومًا ما، فهي أيضًا تجتهد في عبادة ربها، فهي تصبر علي الجوع وعلى متاع الدنيا القليل ولا تدفع زوجها إلى حرامٍ أبدًا، وهي بدورها ستربي أولادها على هذه المعايير.

فإذا تزوج الرجل امرأة بعيدة عن فهم هذه الأفكار، لاسيما إذا كان لها تطلعات أخرى ونظرات مختلفة ، ولا تدرك معاني اليوم الآخر، والآخرة خير وأبقى ، فإنها لا شك ستخلق نوعًا من الازدواجية في المعايير، وسيكون الوضع معها مختلفًا في تربية الأبناء ، فينشأ عندهم من الحيرة والقلق والاضطراب ما الله به أعلم، فأي سبيل يسلكون وأي طريق يتبعون كما أن الازدواجية في طريقة أو أسلوب التربية سيؤدي إلى خلق بلبلة الأفكار فإذا كان الأب يضرب على فعل خطأ ، والأمر على عكسه تمامًا تشجع على هذا الفعل وتحثه عليه، فمن أين يهتدي هذا الولد ، ومن يتبع أمه أم أباه فهذه الازدواجية مرفوضة ، وهي بخلاف العادات التي ترتبط بالطباع، ويجب تعليم الأبناء ذلك كالاختلافات في وجهات النظر، وهي أمر لابد منه فمثلاً الأب يحب شيئًا والأم لا تحبه ، فيجب تعليم الأبناء ذلك أن هناك أمورًا تقبل الجدال والمناقشة ، وإن الناس لا يزالون مختلفين، لكن ذلك يتحقق في مجالات لا ترتبط بالأخلاق والقيم والمبادئ المقررة الثابتة فالكذب مثلاً حرام، والصدق نجاة، والمسلم لا يكذب أبدًا.

فلا يمكن بحال من الأحوال أن نقول الكذب ولا أن نفعل ما يخالف أقوالنا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

* * *



الفصل الرابع

بأقلام أحد الشباب تحت العشرين

الفصل الرابع

بأقلام أحد الشباب تحت العشرين

قال عبد السلام فاروق:(١) في العام الأخير منذ دراستي الثانوية في مدرسة المنيا علمني الأدب العربي أستاذ شاب كان قد تخرج من كلية الآداب حديثًا وقدم إلى مدرستنا لتوه.. وكان متحرر الفكر... حر الضمير ... صريح القلب واللسان كان يتحدث إلينا - نحن الطلاب - حديثًا صريحًا مخلصًا.

وكنا نحبه حبًا جمًا، لأدبه وحيائه وعلمه، ونصارحه القول، وكان يبادلنا حبًا بحب وودًا بود، ... حتى تركناه، وله في نفوسنا أجمل الزكريات، وما زلت أذكر قولاً كان ذلك الأستاذ الحر يردده لنا: إنكم محظوظون - دائمًا لأنكم أبناء الأسر الغنية - فمن بين أسركم من يمتلك الأرض أو التجارة أو الوظيفة الكبيرة، أما أنا فقد نشأت فقيرًا لأب يعمل في صناعة الملابس وكنت أساعده في العمل لقاء «جنيه واحد» في اليوم أنفق منه على نفسي وها أنا ذا أقف أمامكم، أفتخر بنفسي كما قال الشاعر:

ليس الفتي من يقول كان أبي ولكن الفتى من يقول ها أنا ذا

ولقد كانت توجيهات ذلك الأستاذ إلى طلبة العلم تسري في وجدانهم سريان الروح والدم في الجسم لأنها في نفسها صدق، ولأن سلوك ذلك المربي الفاضل تجسيد لها، وهذه التربية الشاملة في مختلف النواحي التي تتصل بالعلم والعمل... كان لها أثر حاسم في نفوس الطلبة.. ففهموها وتأثروا بها على نحو بلغ الإعجاز في بناء أجيال.

وبعد فترة من الوقت وجدت نفسي أتسلى بكتابة بعض الخواطر والآراء وراق لي ما كتبت فأرسلت بعضه إلى الصحف وسرعان ما وجدت ترحيبًا وتشجيعًا من كتاب كبار.

---

(١) المقال في مجلة الشباب - تحت العشرين - العدد العاشر سبتمبر ٢٠٠٤ .

وتذكرت ما قاله أستاذ اللغة العربية الفاضل، بأنه لم يشعر قط بالمهانة وهو يعمل مع والده في حياكة الملابس، وما زلت أتذكر قوله: يجب علينا أن نحترم كل صاحب حرفة أو مهنة إذ لا يجب أن ننقص أبدًا من قدر صاحب المهنة مهما كانت ما دامت شريفة.

ونقول تعليقًا على ذلك: إن خير ما أكل ابن آدم ما كان من عمل يده كما أوصانا بذلك نبينا ﷺ ، فقد كان ﷺ يعمل بيده عندما كان يشتغل بالتجارة قبيل البعثة في مال خديجة ـ رضي الله عنها ـ وسار على ذلك الدرب صحابته الكرام والمؤمنون الصادقون.

* * *

وكتب شاب آخر عن حرب الفضائيات

قال الشاب: «حرب الفضائيات الغنائية ظاهرة تستحق أن نتوقف عندها بكثير من التأمل والتحليل، وذلك لأن الحرب قد أتت على الأخضر واليابس، في عالمنا الإسلامي والعربي، لقد أصبحت الأغنية لا نجد لها قوامًا شرعيًا فلا كلمة ولا صوت، إنما تجد رقصًا وعريًا وفجوراً، ومع ذلك تجد من يقول بكل جرأة: «هذا غناء استعراضي » وعندما تسأله :هل الاستعراض يعني تقديم أوضاع جنسية فجة، أو أن تتفاخر إحداهن بأنها قد أثارت الحصان الذي كان معها في الكليب؟ عندما تسأل هكذا ببساطة ، فإننا لا نسمع أية إجابة مقنعة ، بل نسمع كلامًا أجوف: أنتم متزمتون، ورجعيون ، نحن في عصر السماوات المفتوحة» وهذا الكلام الباطل الذي يراد به باطل، فالحفاظ على الأخلاق الكريمة وعلى تراث الأمة لا يعني تزمتًا ، كما أن عصر السماوات المفتوحة لا يعني أن يستبيحني ، ويغزوني من يريد أن يغير تعليمي وإعلامي وخطابي الديني ، وعندما يدافع البعض عن مثل هذا الغزو الثقافي ، فإنه يصبح كالطابور الخامس الذي لا يسمح فقط باحتلال الأرض، لكن يسمح باحتلال العقول والوجدان والاستحواذ على الأفكار ، وإلى هؤلاء أهدي لهم هذه القصة من بلاد الغرب، فمنذ عدة أسابيع قامت مطربة الجاز (جانيت جاكسون) شقيقة (مايكل جاكسون) بفتح أزرار البلوزة التي ترتديها وهي تغني على المسرح ، فما كان من القائمين على الأمر إلا أن قاموا بتغريمها عشرة آلاف دولار، وتهديدها بمنعها من الظهور على شاشات التليفزيون والمقصود: أن أي فن، أو ما يُدعى بالفن أو أية حرية لابد وأن يكون لها حدود»، فماذا عساهم يريدون ، فأنا أتصور أنهم كمن كان في حبس أو سجن منذ مائة عام ثم خرج إلى الدنيا، وكأنه لم ير شيئًا ، فحدث له انفتاح في كل شيء، فلماذا نقبل بأن يدافع الغرب عن قيمه المزعومة، ونرفض أن ندافع نحن عن قيمنا. . . وفي النهاية يجب أن نبحث عن السر وراء هذه الحرب المعلنة في الفضائيات ، فقد نكتشف أنها من صنع «الأصدقاء»[١] .

(١) بقلم / محمد الشافعي ـ مجلة تحت العشرين العدد الثالث: يوليو ٢٠٠٤ .

خاص بشباب تحت العشرين

الأبواب الخلفية لمتاهات الزواج السري

انتشر في الفترة الأخيرة أنواع عديدة من الزواج تختلف عن صور الزواج الرسمي الشرعي المتعارف عليه في الدين وأمام القانون كالزواج العرفي أو ما يُسمى بالزواج العرفي على حد قول من يسميه زواجًا - إذ يمكن لنا أن نقول عنه «علاقة عرفية» أو « صداقة عرفية » وانتشر أيضاً ما يسمى بزواج المسيار ، وغيرها من الأنواع التي هي في الأصل تحايل على الشرع والقانون، وعن هذه الأنواع يقول الدكتور: مصطفى الشكعة / عضو مجمع البحوث الإسلامية: «الزواج الشرعي هو ما قال فيه ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ ... ﴾ [الروم: ٢١] ففي هذه الآية مواصفات الزواج في الإسلام وهي: السكن، والمودة، والرحمة والسكن يعني: الاستقرار بين الرجل والمرأة وأن يسكن ويرتاح كل منهما إلى الآخر، فالنساء شقائق الرجال، والرجل لا يسكن إلا بجوار المرأة ولا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر.

وأما الأنواع الأخرى فمنها أنواع قد أقرها الإسلام في مواقف معينة ثم جاء الحكم بالنسخ والبطلان ، فزواج المسيار - هو زواج المرأة البعيدة التي يسافر إليها زوجها - حلال إذا أعلن وعرفه الناس والأهل والأقارب ، أما زواج المتعة فقد وجد على عهد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وقد أباحه الرسول ﷺ في الحرب لأنه خشي الفتنة على الرجال، وقد حرم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذا الزواج وعندما اعترض الصحابة على ذلك أوضح - رضي الله عنه - أن الرسول ﷺ حرمه بعد ذلك، وأما النوع الأخير وهو الأكثر ظهوراً وانتشاراً ما يسمى أو ما أُطلق عليه «الزواج العرفي» إذ لا يوجد في الإسلام ما يسمى بالزواج العرفي، فهذا زواج غير

معلن وهذا الزواج لا يشترط المهر أو الإنفاق أو الاستقرار وهو حرام وزنى إلا إذا أعلن وتوفر فيه باقي الشروط من مهر وشهود.

قال د. عبد الصبور شاهين: إن الزواج اقتران رجل بامرأة ولا يصلح أن يكون اقترانًا مؤقتًا إلا تحت ضغوط اجتماعية أو اقتصادية ويدخل تحت هذا أنواع كثيرة ليست حقيقية في الزواج كالزواج العرفي ، والمتعة والمسيار وزواج الدم وغير ذلك فالزواج الحقيقي هو ارتباط نهائي بين الرجل والمرأة ولا يصح فيه أي تحايل يلغي فائدته لأن القرآن يضع الزواج في موضع رفيع جداً ولا يقبل أن يكون موضع مساومة» أما د. محسن العرقان، عضو المركز القومي للبحوث الاجتماعية : فيذكر أن الزواج تشريع سماوي نظمته جميع الأديان بل فرضته على كل بالغ عاقل راشد، ووضعت له شروطًا، أول هذه الشروط: الشروط المادية فعلى كل مقتدر شاب أن يتزوج حتى يعف نفسه، وهناك شروط أخرى وضعتها الأديان منها: «المودة والرحمة، وإقامة العلاقة الحميمة بين الناس، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

فإذا انتفى هذان الشرطان يبطل الزواج، لأن الزواج ليس مجرد إشباع غريزة وفقط، بل هو أساس لإقامة الحياة الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك أصبح الزواج ينتفي فيه الشروط الدينية والاجتماعية حتى أصبح عبئًا على المتقدمين ، فقد انتفت المودة والرحمة وأصبح الزواج عبئًا اقتصاديًا أو مباراة اقتصادية.

فالعروس تطلب أن يكون بيتها مؤسسًا تأسيسًا كاملاً من جميع الوجوه، حتى ولو كان أساسها الاجتماعي متواضعا وتصبح المغالاة في الطلبات بحيث يعجز المتقدم الشاب عن الإيفاء بالمتطلبات التي يعتبرها الدين أساسية لإتمام الزواج وهي المهر والهدية التي تسمى «الشبكة» وهذا ما كانت نتيجته ارتفاع متوسط سن الزواج للبنات (٣٣ سنة) والشباب (٣٥ سنة) لذلك توجد تحايلات كثيرة للتغلب على هذه العقبة ، فالطرفان سواء كانا بنين أو بنات طالما أن حلمهم في تأسيس بيت الزوجية لن يتحقق لوجود المشاكل الاقتصادية والغريزة الجنسية موجودة وملحة فليجأون إلى أشكال أخرى من الزواج على رأسها الزواج السري، وهو ما يعرف بالعرفي وطالما أن الزواج ينتفي

لشروطه الأساسية يكون سريًا.

وأما الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف يؤكد أن الزواج الإسلامي له شكل واحد وله وصفة واحدة ، فقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل»** والولي هو الأب أو العم أو الخال وقد قال ﷺ : **«أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فزواجها باطل باطل باطل»** فلابد من وجود الولي بالإضافة إلى الإشهار (الإعلان) والشهود ، والصداق: المهر، فقد قال النبي ﷺ : **«التمس ولو خاتمًا من حديد»**.

أما عن زواج المسيار والمتعة فيقول الشيخ: «إنه إذا توافرت فيهما شروط الزواج الشرعي فهما جائزان[1] وعن الزواج العرفي فيقول: إنه لا يوجد في الإسلام هذا الزواج ، وإن الإسلام لا يعرف إلا نوعًا واحدًا من الزواج وهو المعلن إلا إذا أعلن هذا النوع فيكون جائزًا شرعًا.

ويقول د. أحمد المجدوب: إن أي زواج يخرج عن الصورة المتعارف عليها وهو الزواج الرسمي الشرعي يكون بعيدًا عن المسئولية ومبني على المتعة.

ويساهم في إشاعة الفاحشة في المجتمع ويتركز الزواج غير المعلن في أهم أنواعه وهو الزواج العرفي الذي يلجأ إليه الشباب للهروب من الأزمات الاقتصادية التي تلاحقهم خاصة شباب الطبقة المتوسطة التي تعاني من داء المظهرية في معاملاتهم المادية، وتضع شروطًا مادية صعبة للزواج، والتي تتراوح أعمارهم فيما تحت العشرين حتى فوق الخامسة والعشرين .

ويوضح د. المجدوب أن قيام الشباب المتعلم بهذا الفعل يشجع أفرادًا كثيرين في المجتمع من غير المتعلمين على القيام بهذا العمل غير المعلن وغير المشروع[2] .

ونحن نقول بدورنا لأولئك الذين يفكرون في هذا الأمر: إن عواقبه وخيمة جدًا،

---

(١) وكما قلنا: إن زواج المتعة قد حرم بعد ذلك وأما زواج المسيار فلا يوجد إلا في حالات نادرة وبشروط معينة كما حددها الشرع.

(٢) بقلم الشيماء عبد اللطيف ، مجلة تحت العشرين العدد الثاني يوليو ٢٠٠٤ ص ١١ .

وما من أحد ابتلي بهــذا الداء إلا عوقب بضد قصده وقد وقع في شــر أعماله، فليس هناك على الإطلاق أي حــالة نجـاح لهذا الزواج، فـمنهم من وقع في بحـر الرذيلة، ومنهم من أصيب بالاكـتئاب ، ومنهــن من وقعت فريسـة لهذا وذاك بعدمـا تنكر لها زوجها المزعوم وتركها وحيدة تعاني ضياع عرضها وشرفها.

فإلى هؤلاء جميعًـا نقول لهم: اتقوا الله في أعراضكم وبناتكم وأولادكم فكلكم مسئولون أمام الله يوم القيامة.

* * *



فهرس
الموضوعات

فهرس كتاب
«تحت العشرين»

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

* * *

